التّمسُك باللهِ

[دراسات في طبيعة وضرورة واقتدار الصلاة]

TAKING HOLD OF GOD

STUDIES ON THE NATURE, NEED AND POWER OF PRAYER

للدكتور صموئيل زويمر

SAMUEL M. ZWEMER

www.muhammadanism.org
December 16, 2009
Arabic

نقله إلى العربية

القس ابرهيم سعيد

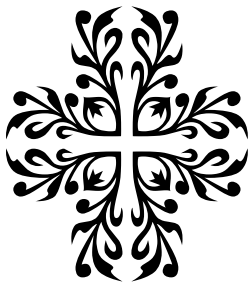

صدر من مطبعة النيل المسيحية
شارع ابرهيم باشا رقم ٧٩ بمصر القاهرة
١٩٣٨

TAKING HOLD OF GOD
N. M. P. No. 808.

التمسك بالله

الفصل الأول

قِدَم الصَّلاة وعُمُوميَّتها

بما أن الصلاة هي أداة اقتراب الإنسان من الله، فهي جَوهر الدّين بل قلبه. فلا دين بغير صلاة. حسناً قال شلاتر العالم اللاهوتي الألماني: «ان قضيَّة الدين هي قضيَّة الصلاة، ونظرية الدين هي فلسفة الصلاة. فالصلاة العادية من أهم أركان الدين العاديّ، والصلاة الصُّورية الناقلة، من مشتقات العبادة الصوريَّة الباطلة».

ما أمتن الصلة الكائنة بين الصلاة والدين؟ فقد أجاد نوفاليس إذ قال: «الصلاة للدين كالفكر للفلسفة». فاليد التي تزيل الصلاة، تقيم في الوقت نفسه نداً فاصلاً بين الإنسان والغير المنظور، وتزيل «الجسر» الذي يعبر غمر الأبدية، وتحرم الطبيعة وقلب الإنسان من ترديد صدى صوت الله. فمتى انعدمت الصلاة، انعدم معها الدين الحيّ»

هذا من جانب. ومن الجانب الآخر، لا دين بغير صلاة. فالصلاة هي أقدم الفرائض عهداً وأوسعها انتشاراً. ويعتقد الكثيرون أنها أقدم عهداً من الذبائح، لأنها أُسّ الذبائح في كل الديانات التليدة. فمنذ العصور

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الأولى، بدأ الناسُ «يدعون باسم الرب». فالصلاة أمر فطريّ غريزيّ. وكما أن جناح الطائر يتطلب الطيران، وزُعنفة السمكة تنشد الماء، كذلك غريزة القلب تتجَّه إلى الله. حسناً عبَّر جورج ماتيسون عن أشواق البشرية أجمل تعبير في صلاته قائلاً:

«قلبي مفتقرٌ إليك، يا ربين قلبي مفتقر إليك! ما من عنصر في كياني يفتقر إليك افتقارَ قلبي. فكل ما في باطني عداه ــ قد يقنع بهباتك: جوعي يشبعه القوت اليومي. وعطشي يرويه الماء الأرضيّ، وبردي يطرده نار الموقد. وتعبي تزيله الراحة الخارجية. ولكن ما ممن شيء خارجي يقوى على تطهير قلبي. فأهدأ يوم يعجز عن تهدئة ميولى الجامحة الثائرة، وأجمل منظر يتعذر عليه تجميل نفسي، واعذب موسيقى لا يمكنها أن تدخل إلى أعماق نفسي. فالنسيم العليل ينقي الجوّ، لكنه لا يقدر أن ينقي الروح،،

«ان هذا العالم لم يُدخل قلبي في حسابه، فقد حسب حساباً لعيني، واذني، ومبضعي، وذوقي، واحساسي بالجمال ــ لكنه لم يحسب قط حساباً لقلبي. فدبّر اللهم ما تراه لازماً لقلبي، وأمدَّه بما إليه يصبو، فهو الطائر الوحيد السَّليب الجناح، في هذا الوجود. فهب له اللهم من لدنك أجنحة».

فكما أن الطائر العديم الجناح، والسمكة السليبة الزعنفة، يُحسبان من الخلائق البشعة في دائرة الطبيعة، كذلك يُحسب الإنسان العديم الصلاة، في دائرة الروح. فلن نبلغ المستوى الطبيعي الذي أراده الله لنا، الا في الصلاة.

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

«فارتفعي إذاً يا نفسي وأبسطي جناحيك» لأن الإنسان مولود للصلاة. فاليونان يطلقون على الإنسان كلمة: «انثروبوس» ويعلل بعضهم هذا بقولهم ان الإنسان هو الكائن المتجه نحو الله.

مهما تنوعت الصلاة عند الامم الساذجة في صيغتها وشكلها، فهي عمومية في حقيقتها. فلا يوجد شعب طوَّحت به البداوة والسذاجة إلى درجة بَعُد فيها عن الصلاة. ففي كل عصر ومصر استنجد الناس بآلهتهم وسكبوا امامهم احتياجات نفوسهم.

والباعث لعمومية الصلاة، يُعزى إلى أمر من اثنين ــ احدهما خارجي، والثاني داخلي. فالبشر شرعوا في الصلاة وواظبوا عليها، إما لأن طلباتهم أجيبت فنالوا البركات التي كانوا يبتغون، أو لأنهم شعروا بحافز داخلي يدفعهم إلى الاتصال بالغير المنظور، على حد قول اغسطين: «اللهم! لقد خلقتنا لذاتك. فلن تجد نفوسنا راحة إلا إذا استراحت فيك».

هذه الحقيقة ليست مقصورة على الذين لهم بعض الالمام بالكتاب المقدس، ممن عرفوا أن يسوع المسيح هو ابن الله، لكنها تتناول جميع البشر، لأن الله خلقهم على صورته تعالى وعلى شبهه.

من أقصى الأقاصي تحن إليك القلوب

وهي لا تدري كيف إليك تثوب

والدمع ينسكب عند موطئ قدميك

من قلوب لا تجد راحتها إلا بين راحتيك

ليست حقيقة الصلاة عمومية بين الأمم البادية فحسب، لكن الدليل

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

يأتينا تلو الدليل على أن صلوات الأمم في بداوتها موجَّهة إلى ذاتٍ عليَّة. ولدى التأمل في صلوات الأمم الغابرة يتبين لنا، ان الاعتقاد بوحدانية الله كان سابقاً للاعتقاد بتعدد الآلهة، كما يدل على ذلك تاريخ العبادة في الصين، والهند، ومصر في غابر الدهور

والأمم الرجعية، كالهنود الامريكيين في جنوب أفريقيا، يوجهون صلواتهم إلى الروح الأعظم. وفي جزائر البحر الجنوبية وبعض القبائل الجبليَّة التي تقطن بلاد الهند، يلقبون الروح الأعظم بـ «أب الجميع».

ان دراسة الديانات الغير المسيحية قد أسفرت عن هذه الحقيقة وهي ان الله لم يترك نفسه بلا شاهد في كل الأمم، وان نعمته العامة المشتركة انسكبت في قلوب البشر في بيئات لم تستنر فيها النفوس بنور الإنجيل

فالصلاة في الواقع أقدم من السحر وأعمّ. وها سجلات آثار الهند ومصر والصين وبابل وبيرو والمكسيك، محتفظة بأنواع كثيرة للصلاة. فالصلاة إذاً، مكونة عنصراً أساسياً في آثار الأدهار. ولكن لا يفوتنا أن نذكر أن البشر في الأزمنة الغابرة كانوا يعبّرون عن مشاعرهم الدينية بما يتفق والمثل الأدبية العليا التي كانوا يدينون بها. من أجل هذا لم يستطيعوا أن يتصوروا المعبود إلا في صورة يشوبها الشيء الكثير من ظلال معتقداتهم الخرافية ولكنهم عبّروا عما يخالج وجدانهم بصلوات وجَّهوها إلى القوى الغير المنظورة

وإذ ندرس صلوات الأمم الوثنية المعاصرة، نلمح علائم التخشع والتعبد منطبعة على العابد. هذه حقيقة لا يسعنا أن نتغاضى عن دلالتها النفسية.

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

فالوضع الجسدي الذي يكون عليه المصلي الوثني ليس بالوضع المألوف. لأن رجال هذه الأمم، يرفعون اياديهم أو اذرعهم. وهم منبطحون على الأرض، ويخلعون نعالهم أو ملابسهم، ويغطون رؤوسهم أو يكشفونها. وهم يستعملون اشارات خاصة كاشارات التحية عندما يصلون. وهم لا يقصدون بهذا أن يقوموا بحركات سيمائية أو سحرية. لكنهم يعبرون بهذه الحركات والاشارات عن تخشعهم وتهيبهم في حضرة الروح الكليّ الغير المنظور الساكن في العلاء الذي خلعوا عليه صفات مشتقة من مثلهم الأدبية العليا التي يدينون بها

غير أنه لا يُستفاد من هذا ان كل هذه الصلوات موجهة إلى «الاله العلي» ولا إلى «الروح الأعظم». ولكن يؤسفنا ان نقول ان جل هذه الصلوات موجهة إلى إله البرية أو إله البحر أو إلى الآلهة الأصغر شأناً التي تسكن بين ظهرانيهم. وهم أيضاً يوجهون صلواتهم إلى تماثيلهم وأصنامهم ومعبوداتهم التي تسود بيئاتهم. فإما إنهم يستنجدون بأجدادهم أو يستجدونهم فدية عن أرواحهم بتقدماتهم وصلواتهم. وعلى الرغم من ذلك، لم يفارقهم الاعتقاد بالاله المطلق المتعالي

وبين بعض قبائل الهنود قوم يترنمون بالصلاة الآتية:

«يا بورابنز (اسم الههم) يا من خلقتنا وخلقت فينا التجوّع. اذكر هذا واستجب صلواتنا. وعند ما نخرج في الصباح الباكر، لنزرع، احمنا من النمر والأفعى. واحم حبات غلاتنا من الطيور. يسرّ الطريق أمام محاريثنا في قلب الأرض وأكثر غلاتنا، وزد عدد مقتنياتنا»

فهذه البساطة وهذا الاتجاه المتضمنان في سجل صلوات الديانات الغابرة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

يذكرانا بالصلوات المسجلة في العهد القديم. وجل الطلبات المتضمنة في كلٍ تتناول البركات الزمنية. وإليك الصلاة التي فاه بها أحد زعماء القبائل الوثنية في افريقيا:

«يا مبابا ها قد حجزت عنا المطر، فجد علينا به لئلا نموت. احفظنا من موت القحط والمجاعة فأنت أبونا ونحن أولادك الذين خلقتهم أيرضيك أن نموت؟ امنحنا خبز الكفاف. لقد منحتنا أرجلاً للمسير، باذرعاً للعمل ومتعتنا ببركة البنين. والآن هب لنا مطراً ليكون حصادنا وفيراً»

على أن صلوات الوثنين ليست مقصورة كلها على البركات الزمنية لكن بعضاً منها يسمو إلى المستوى الروحي والأدبي فنرى من خلاله تجوع النفس وتعطشها إلى ما هو أعلى وأسمى. فبين قبائل افريقيا الشرقية، توجد قبيلة تقدم الصلاة التالية بين أدعيتها المسائية:

«إليك اللهم نفزع، وبك نستعين. فلا تتباعد عنا»

وقد اعترف المكسيكيون الأقدمون على رغم فظائعهم الكثيرة، بوجود كائن عليّ، وخاطبوه باعتبار كونه «الاله الغير المنظور، الروحيّ، الكامل، الطاهر، الذي تحت جناحيه يحتمون ويجدون خير سلوى وسرور».

حتى قبائل الهتنتوت في جنوب أفريقيا يلقبون «الروح الأعظم» بـ «آب كل روسائنا وزعمائنا». وإليك أدعية إحدى القبائل الهندية «يا ربنا يا أمنا ويا أبانا رب التلال والوديان». ما أبعد كلماتهم ــ وما أقربها ــ في نفس الوقت، من كلمات المسيح في الصلاة الربانية: «أبانا الذي في السموات»

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

وهيلر، أحد كبار المؤلفين في موضوع «الصلاة» خصص أكثر من مئة صفحة في كتاب له عن صلوات الأمم البائدة. وفيه بحث علة صلواتهم وبواعثها وصيغتها والآلهة الموجهة إليها. ومع أن الباعث الأولى على الصلاة هو الاستغاثة، إلا أنه باعث حقيقي. وهاك بعض ما قاله هيلر:

«لقد تعود الإنسان في دور البداوة أن يتخذ في الصلاة نفس الاتجاه الذي يتخذه عند مخاطبته سيداً أو رئيساً. ويتوشح في الصلاة بنفس الاحساسات التي تختلج في نفسه لدى الأهل والأقربين، لأنه كان ينظر إلى القوى العليا التي يصلي إليها نظرته إلى آبائه وأجداده. فبكل صراحة واخلاص كان يعبر عما يخالج نفسه «ويسكب قلبه» بكل ثقة واطمئنان ــ اعتقاداً منه أن الله ليس بأجنبيّ عنه لأنه بقلبه أدرى. وهو يحبه من كل قلبه لأنه ذاق حلاوة صلاحه وجودته. من أجل ذلك نراه يثق به ثقة تامة من غير قيد ولا شرط».

قد يرى في هذه التعبيرات بعض المبالغة. لكن إذا كانت الصلاة هي السلم التي تربط الأرض بالسماء، وإذا كان الإنسان المصلي متصلاً بعالم الغيب وعالم الشهادة، والرجل الغير المصلي مرتبطاً بعالم واحد فقط، وإذا كان رجل الصلاة يرفع نظره ويوجّهه إلى ناحية بعيدة عن ذاته، فيصلح حاله ومآله، فلا حرج علينا من الاعتقاد بأن الصلاة هي إحدى الوسائل لتقوية مشاعر الأمم المتوحشة وتدريبها على الشجاعة، وانماء بزرة الايمان في قلوب بنيها.

والصلاة عند الاغريق ــ اليونان ــ كانت متغلغلة في حياتهم العامة والخاصة. وكانوا يفرغون صلواتهم عادة في صيغ مختصرة كانوا يزعمون انها

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

ذات قوة سحريّة خفيّة. حسناً قال افلاطون: «كل عاقل يطلب مساعدة الالهة قبل البدء في أي عمل هام». وحدثنا بلوطرخوس، عن بريكليس الخطيب العظيم، انه قبل القائه أي خطاب كان يطلب إلى الآلهة أن تجعل كلماته نافعة وفعّالة.

ومنيكا الروماني، ذلك الفيلسوف الذي عاش في بيئة وثنية أعترف بوحدانية الله عندما صلى قائلاً:

«نحن نعبد ونمجد مبدع الكون ومصوره ــ الضابط الأعظم والمدبر الأكبر، والحافظ الأجل ــ الذي فيه يقوم الكل، الذي هو عقل الكون وروحه، وهو مصدر الكل، وبروحه نحيا؛ إله كل القوات، الإله الحاضر في كل زمان، إله الآلهة، إياك نعبد وإياك نمجّد»

فهذه المذابح التي أقيمت لآلهة مجهولة، أو لاله عُرف معرفة جزئية، أو للروح الأعظم الذي يرفرف على وجه عالم أخربته الخطية ودمرته، انما هي توبيخ مجسم لنا نحن المسيحيين العديمي الصلاة، ولتلك المسيحية الصورية البعيدة عن جوهر المسيحية وقوتها، التي تشك في اقتدار الصلاة

منذ عامين تقريباً نشرت إحدى المجلات الدينية الواسعة الانتشار بحثاً استقرائياً عما إذا كانت الصلاة لأجل المطر تحسب أمراً سخيفاً في عصر يسوده العلم كعصرنا الحاضر، لكن الدكتور كراب قد قدم خير جواب عن هذا السؤال في قاموسه عن لسان الوثنيين الافريقيين في أدعيتين جميلتين، الأدعية الأولى تُتلى وقت الحرث. والأدعية الثانية تُتلى وقت الجدب والجفاف

«اللهم إليك نتوسل ونحن نزرع هذا الحقل ان تعطينا منه ما يسد

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

كفافنا. وها نحن نفلّح هذا الحقل كي ينبت غلات وفية وليكون حصاده عظيماً عند اكتمال نموّه»

ثم يبصق على فأسه ويقول «ايتها الفأس تعمقي في الأرض المروية لتنبت انباتاً حسناً»

وإليك الصلاة التي يتلونها لاستدرار المطر:

«اللهم جد علينا بالمطر لأننا في بؤس وشقاء. نحن نكدّ ونجاهد. لكننا نحن ذريتك. جد علينا بالسحب المليئة بالأمطار ليشبع شعبك من غلات الأرض. استجبنا اللهم لأنك أنت أبونا»

وللقارئ أن يحكم في مقدار التشابه الكائن بين هذه الصلوات وصلوات العهد القديم المرفوعة في أوقات القحط والجفاف. «كان ايليا إنساناً تحت الآلام مثلنا وصلى صلاة أن لا تمطر فلم تمطر على الأرض ثلاث سنين وستة أشهر. ثم صلى أيضاً فاعطت السماء مطراً وأخرجت الأرض ثمراً» (يعقوب ٥: ١٧ و١٨)

من أقدم الصلوات وأكثرها تأثيراً تلك التي رُفعت في وقت القحط، وقد سطرت في الاصحاح الأول من سفر يوئيل. وإليك ما قاله الأستاذ روبرتسن سمث عنها:

«كل عدد تتألق في سمائه لآلئ كثيرة. شجرة التين تجردت عن أوراقها فاضحت جرداء في وسط صحراء قاحلة. والعروس لبست مسوحها وهي تندب عريسها، والمخازن أضحت خاوية خالية، وقطعان الاغنام تشتت ايدي سبا من شدة القيظ والعطش فتفجَّر قلب النبي بصلاة انبعثت من الصميم»

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

وبولس الرسول الذي كان قلبه قوي الاحساس سريع التأثر، نظر إلى العالم الذي حوله وإذا به «يتمخض ويتوجع ويئن». ويقول كاتب المزامير ان الرب يسمع صراخ افراخ الغربان ــ مز ١٤٧: ٩. فلا عجب إذا كان الأطفال وهم يصغون إلى نعيب أفراخ الغربان يقولون «ها الغربان تتلو صلواتها المسائية»، أو هي ترفع صوت الحمد والشكر لأجل كل لقمة من الطعام تصيبها. فنحن عائشون في جو مشبع بالصلاة، فكل النسمات تحدث بمجد باريها وكل الخلائق تستنجد بخالقها وحاميها. حسناً قال هوشع بروح الوحي والالهام ــ لا بروح الشعر والوجدان ــ متكلماً عن الله:

«ويكون في ذلك اليوم اني استجيب يقول الرب. استجيب السموات وهي تستجيب الأرض، والأرض تستجيب القمح والمسطار والزيت وهي تستجيب يزرعيل» (هوشع ٢: ٢١ و٢٢)

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الفصل الثاني

طبيعة الصلاة

تبين لنا من الفصل الماضي ان الصلاة هي أقدم، واعمّ، وأعمق تعبير عن المشاعر الدينية. لكنها في الوقت نفسه من أدق الفعال والحالات النفسية التي يصعب على المرء أن يجيد وصفها. فهي تتحدى كل وصف وهي أوسع من كل تعبير، وأدق من كل كلام، وأعمق من كل لغة ينطق بها البشر. فالصلاة ــ كما قال أحد المتصوفين في القرن السادس عشر ــ لا تقوم بطلبنا من الله ما نريد بل بما يريده الله منا. وقال پول رتش قبل وفاته بعامين، لصهره:

«الصلاة يا بنيّ كما يريدها الله أن تكون، كلما فكرت فيها امتلأت نفسي خجلاً. وفي اعتقادي يا بنيّ ان الصلاة من كل القلب ومن كل القدرة ومن كل الفكر ومن كل الإرادة، بالثقة الوطيدة أن الله يسمع صوتنا في المسيح فنعمل نحن ما هو مرضي امامه ــ الصلاة على هذه الصورة هي آخر معركة وأخطر جهاد لنا في حربنا الروحية على هذه الأرض».

فالصلاة بحسب رأي هذا المفكر العميق والتلميذ الغيّور تتطلب كل قوى النفس وتستلزم لبس كل سلاح الله الكامل. ألم يعلمنا بولس نفس هذا الحق إذ وضع الصلاة في مقدمة أسلحة الحرب الروحية المذكورة في افسس ٦: ١٠ ــ ١٨

فما هو جوهر الصلاة؟ وما هي العناصر المتنوعة المتضمنة فيها؟ وأي

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

اختبار تجتازه النفس عند ما يصلي الإنسان إلى الله؟ لا جدال في أن الصلاة تتضمن الشيء الكثير غير الطلب. لكن الطلب هو قلب الصلاة. «اسألوا تعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يفتح لكم». هذا هو أحد الدروس الأولية التي علمها المسيح في مدرسة الصلاة.

كم للصلاة من تعريف! جيمس مونتجومري حشد أربعة عشر تعاريفاً للصلاة في ترنيمة مؤلفة من ستة أعداد. الصلاة شوق خالص، الصلاة قد تكون تعبيراً صامتاً، الصلاة نار خبيئة، الصلاة تنهدة ودمعة، الصلاة هي اتجاه النفس إلى الله، الصلاة أمر ساذج كلثغة لسان الطفل، وهي في الوقت نفسه سامية كجلال الله وسموه، هي صرخة الابن الضال، هي نسمة النفس، هي هواء الجبل العليل، هل كلمة السر عند الموت، هي مفتاح السماء، وهي سبيل مخلصنا. فالتأمل في هذه الأوصاف المنوعة يقودنا إلى كشف كنوز مخبوءة في الكتاب المقدس عن الصلاة.

وجورج هربرت الشاعر القديس المتوفي سنة ١٦٣٣ نظم قصيدة في معنى الصلاة ضمنها النعوت الكثيرة، التي تثير تفكيرنا واهتمامنا. وإليك بعض الأوصاف التي خلعها على الصلاة:

«الصلاة هي وليمة الكنيسة وهي حياة الملائكة
هي نسمة القدير في الإنسان تعود إلى الله من حيث بدأت
هي خير مترجم عن النفس والقلب في غربة الحياة
هي صدى صوت حياة المسيحي مرتداً من الأرض إلى السماء
هي مخزن القوة المقتدرة وملجأ الخاطئ الأثيم

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

هي الرعد المختزن وهي الحربة التي تطعن جنب المسيح
هي خلاصة الأيام الستة مركزه في ساعة واحدة
هي أغنية واحدة تتجمع فيها كل الأنغام من طارفة وتليدة
هي الحنو والسلام والبهجة والفرح والمحبة والرجاء
هي المن السماوي الذي يشبع وينعش ويبهج
هي السماء متمشية على الأرض فتمجد الإنسان وتكلله
هي طريق المجرة في الفلك الروحي وهي عصفور الجنة
هي نواقيس الكنيسة يدوي صوتها إلى ما وراء السُّحُب».
هذه العبارة الأخيرة ذات أثر جليل الخطر. فلا يكفي ان نصلي بالروح بل بالذهن أيضاً.

في الاصحاح الرابع والستين من اشعيا ــ وهو أحد الخمسة الاصحاحات المهمة بين دفتي الكتاب المقدس التي تبحث في الصلاة ــ نلتقي بتعريف مناسب عن الصلاة، ولعله يفوق كل تعريف آخر في السمو، والدقة، والجرأة. فبعد أن قال النبيّ: «منذ الأزل لم يسمعوا ولم يصغوا. لم ترَ عين الهاً غيرك يصنع لمن ينتظره»، أقدم على الاعتراف بخطاياه وخطايا شعبه قائلاً: «قد صرنا كلنا كنجس وكثوب عِدَّة كل أعمال برنا». من ثمَّ قدم لنا في العدد السابع خير تعريف للصلاة: «وليس من يدعو باسمك أو ينتبه ليتمسك بك». هذا تعريف جريء. فالعبارة الأخيرة كما وردت بالعبرية تصوّر لنا إنساناً مستيقظاً من نومه ليتمسك بالله. ولا جدال في انه ليس تمسكاً باليد الجسدية كما يفعل الوثنيون حينما يقبضون على نواصي أوثانهم

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

ليستدروا من أيديها المراحم المزعومة. لكنه تمسك الإنسان المستعطف ــ كدتُ أقول المستميت ــ المتعلق بالله بكل ما في نفسه الباطنة من سواعد مستديرة وقبضة قوية، وبكل ما في عقله ما من حجج دامغة مقنعة

فلا غرو إذا كان بولس يصف اشعياء بالجرأة والاقدام. فالنفس البشرية بائسة مسكينة لكنها تقوى على التمسك بالروح الأزلي القدير الغير المحدود

«كلِّمه أنت. فهو إليك مستمع، والروح بالروح تتلاقى. فهو أقرب إليك من نسمتك وألزق إليك من يديك وقدميك»

هذه هي فلسفة الصلاة ــ هي تجاوز النفس عن نطاقها الذاتي وامتدادها إلى الله، وشركتها معه واتحادها به كما هو معلن في المسيح بالروح القدس. إلى المسيح كانت ترمز سلّم يعقوب التي عليها ارتقت نفسه وتسامت إلى حضرة الله. فإذا لم تكن الصلاة المسيحية ذلك، وَجَبَ أن تكون كذلك. ليست الصلاة مجرد «أسمى ترويض لمَلَكات العقل الإنساني» وكفى بل هي أيضاً أسمى ترويض لعواطف الإنسان، وارادته، وذاكرته، وتصوراته، وضميره. فكل قوى النفس الإنسانية تجد في الصلاة وحدها أوسع مجال عملي أخلاقي. فالإنسان العديم الصلاة، إنما هو عديم التديُّن وملحد بكل معنى الكلمة. وتعبد الإنسان المصلي يقاس بمقياس صلاته. هذه حقيقة وان انطبقت على كل الديانات الإلهية، فهي بنوع أخص تنطبق على المسيحية

فأول كل شيء يجب أن نتمسك بالله، بكل فكرنا. فأسرار الفداء التي

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

تشتهي الملائكة أن تطلع عليها، خليقة بأن نتمعن فيها جيداً ونحن على ركبنا جاثون. «لذلك» ــ كما يقول بطرس الرسول ــ «يجب أن نمنطق احقاء ذهننا صاحين» كي نستطيع ونحن جاثون أن نعرف الله ــ أقصد ذات الله لا الطبيعة التي هي رداؤه، ولا الإنسان الذي هو صورته، ولا القديسين الذين هم خدامه ــ بل الله نفسه. فبترويض اذهاننا المستنيرة بروحه الأقداس نبذل كل الجهد في تفهّم ذاته وصفاته فنمجده ونعبده على خلقه أيانا ومحافظته علينا. حسناً قال داود في المزمور المئة والرابع: «يا رب الهي. قد عظمت جداً. مجداً وجلالاً ليست». ناهيك عن الفصول الكثيرة الموجودة ضمن دفتي سفر أيوب وكثير من المزامير التي تحدثنا عن عبادة الرب وتمجيده بكل الذهن

بامكاننا ان نتمسك بالله بكل أذهاننا متى ذكرنا طيبته وصلاحه. فالشكر يقوم بترويض الذاكرة في بستان بركات الله علينا. ومخيلتنا تُذكى بنار التأمل في فيض محبته وجلال مجده، وعجائب مخلوقاته، وعظمة شدة قوته. بمثل هذا التأمل، يتاح لنا أن نسترد ذلك الفن الجميل الذي أضعناه ــ أعني فن اللهج بالله: «كما من شحم ودسم تشبع نفسي وبشفتي الابتهاج يسبحك فمي... إذا ذكرتك على فراشي في السهد ألهج بك». فالنفوس الهزيلة تسترد عافيتها ونشاطها إذا ما تدربت على هذا الفن الضائع. ان الخجل يغطي وجوهنا عندما نذكر الوقت التافه الذي نبذله في اتقان هذا الفن الجميل

ان الحالة النفسية التي تتطلبها الصلاة تتناول التمسك بالله بكل عواطفنا وميولنا، وأعمق مشاعرنا الدفينة. كل هذه العناصر متضمنة في صلوات داود: التخشع والخشية، والحزن، والفرح، والحب، والبغضاء، والغيرة، والألم ــ فان

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

أحسنا التصرف بهذه العناصر أمكننا ان نوجِد لها أفضل مجال في الصلاة السرية. ويقيننا ان خير علاج للرياء ــ هو التمسك بنبع البساطة والاخلاص ــ الصلاة السرية. هذا ما قصده داود بقوله «اسكبوا قلوبكم قدامه». بهذا يُنتفى الزَبد ويذهب جفاء أما الحق فيُثبت راسخاً. ولقد أشار بولس الرسول في رسائله مراراً إلى الدموع التي سكبها على مذبح الصلاة. وقد احتفظت العصور المتأخرة بصلاة رفعها الأسقف اندروز يستدر بها الدمع إذ قال:

«جد عليّ اللهم بنبع في رأسي استدرّ منه الدمع. وهبني نعمة البكاء فيرطب قلبي المجدب بسحّ الدمع الغزير. اجعلني اللهم شريك داود وارميا وبطرس والمجدلية في سكب دموع الحنان والندامة. امنحني اللهم دموعاً فأسكبها عند قدميك لتجمعها في زقّك وتحفظها في سفرك الأبدي».

ان الاعتراف بالخطية يجب أن يكون يومياً ومستفيضاً فيتناول كل دقائق الحياة ومخبآتها لأننا في حضرة الله الذي لا تخفى عليه خافية. حسناً فعل واضعو «كتاب الصلاة العامة» إذ استهلوه بالاعتراف. وكل من يقرأ كتاب يوحنا بنيان عن: «النعمة التي غمرت أكبر الخطاة» وكتاب اندروز عن: «تعبده السري». يرى الدموع ملطخة ــ أردت أن أقول معطرة ــ كل صفحة فيها. لأن كلا المؤلفين كان من أبطال الصلاة

ومتى التهبت قلوبنا بنار حب ملكوت الله، واضطرمت أحشاؤنا بغيرة مقدَّسة لمجده الاسنى، استطعنا أن نتفهم أسرار صلوات هنري مرتن الذي قضى مرسلاً في بلاد فارس، وديفد برينارد الذي خدم هنود أمريكا، وان نشاطر ــ إلى حد ما ــ ديفد لفنستون صلاته لأجل افريقا، وان نرقى إلى

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

مستوى الشركة مع اندرو موري في تعبداته

حسناً تغنى أحد الشعراء:

ما أعجب القلب
فهو وان يكن بلا عين
الا انه قوي البصر يخترق حجب الظلام والغيب
ويتخطى إلى ما وراء العنان
ليس للقلب يدان
لكنه يحس بلمسة الحب
فما كل الأيادي التي في الأكوان
بأكثر حساسية من القلب
ليس للقلب من قدمين
لكنه سريع الخطى
فيرتقي تارة إلى أعلى عليين
ويهبط طوراً إلى الهاوية الدنيا
فما أعجب القلب
فهو أعجب من الرأس
فبعد أن يدفن الجسم في التراب
ينتعش القلب وينتصر على ظلمة الرمس

نعم الصلاة هي كل ذلك، وهي أيضاً أعظم من ذلك. نعم هي خيرُ مروّض لملكات العقل والعاطفة، وهي فوق ذلك خير مروض ومدرب للإرادة. فقد

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

وهبنا الله قوة الاختيار ليس في حال الانقياد والتأثر، بل في حال القياد والتأثير. ليست إرادة الله وسادة ناعمة تتوسدها نفوسنا المعيية، لكنها مصدر للقوة ينشئ فينا قدرة على الخدمة. ان إرادة المسيحي في الصلاة، بعيدة المدى لأنها تتصل بالسماء في نبعها، وبالأرض في قوة فاعليتها، لما صلى دانيال، حرضت صلاته رؤساء الملائكة على العمل. والصلاة الحقة تحرك القوى الالهية، وتوقف تيار القوى الشيطانية بدرجة لا يمكننا أن ندرك كنهها الا متى بلغنا ملكوت الأنوار والمجد

الصلاة الحقةُ تكسبنا على قدر ما ننفق في سبيلها. فالخطوة الجديدة التي نتقدمها إلى الامام هذ ذات الأثر الفعال في الصلاة. وهي التي يحسب لها كل حساب في خدمتنا، «ثم تقدم قليلاً وخرَّ على وجهه وكان يصلي». فهذا القليل الذي نتقدمه في صلاتنا هو الذي يستدر علينا الخير العميم والفيض العظيم

ان الصلاة لأجل الآخرين شبيهة بحرب شعواء. شديدة اللظى، حامية الوطيس. فما أحوجنا إلى «لبس سلاح الله الكامل» في هذه الحرب الروحية المقدسة، لأننا إنما نتصارع في الخنادق ضد قوات الظلام. ولكننا عندما نكون على ركبنا جاثين، نصبح ملوكا وكهنة لله في ملكوت لم يحلم بمثله نابليون، ولم يخطر شبهه لبال الكساندر. وفي مقدمة هؤلاء الملوك الغير المتوجين نرى هدسون تيلر، وجورج موللر.

والمخدع الذي نخلو إليه في صلاتنا اليومية هو خير ساحة الترويض عضلات النفس الروحية. فلقد اجاد الدكتور كارل هيم، الاستاذ بجامعة توبنجن بالمانيا اذ قال عن الصلاة في كتابه: «النظام الالهي»:

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

«من لزوميات الصلاة أن نمتلئ يقيناً بان كل تاريخ العالم ــ من النجوم في أفلاكها، والنمال في مدابها ــ كائن في قبضة الله كقطعة من الطين المرن في يد الفخاري. فهو يصنع ما يشاء. فما من عصفور يسقط إلى الأرض بغير اذنه تعالى».

«سواء أبقى شكل العالم كما هو أم تغير فليس هذا نتيجة مصادفات طارئة أو ضرورات مسببة، «لكنه يرجع إلى إرادة الله وكل ما يصادفني أو يصادمني في يومي أو في غدي، لا أبحث عن علته في عوامل ميته ولا في نواميس طبيعية جامدة، ولا أعزوه إلى بشر ضعاف مثلي، ولكنني أنسبه إلى المولى عز وجل. اني أرني واقفاً بين تيارين أحدهما علوي، هو تيار محبته التي تجذبني إليه وثانيهما سفلي، هو تيار قوى العالم المعاكسة التي تسيبني لتبعدني عنه. وما سائر الأشياء التي تلاقيني في حياتي سوى مظهر لأحد هذين التيارين

«فالصلاة إذاً ــ سواء أكان المصلي شاعراً أم غير شاعر ــ تفترض تعليل العوامل الطبيعية على الصورة سالفة الذكر. وكل مصلٍ ينظر إلى تاريخ العالم نظرة باطنة فاحصة يرى فيه هاتين القوتين تتصارعان ــ الإرادة الإلهية القدسية، والإرادة الشيطانية. فالمعجزات إذا هي تعبير لنصرة الإرادة الإلهية في هذه المصارعة الروحية. وكل مصل يعلم ان هذه النصرة ممكنة في أي وقت وفي أي موقف»

فمن واجبنا أن نضع كل هذا نصب أعيننا لنستوعبه، حتى يتبين لما الخيط الأبيض من الخيط الأسود في طبيعة الصلاة ومعناها، وفي الميدان الروحي الذي تكون فيه الصلاة مقتدرة كثيرة في فعلها

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الفصل الثالث

مكان الصلاة والوضع اللائق بها

مع ان الصلاة جائزة في كل مكان، الا ان كل الأمكنة في هذا الباب ليست على السواء. فمن الجهة الواحدة يمكننا أن نطلق على الصلاة ذلك القول الذي خاطب به الله يشوع: «كل مكان تطأه بطون أقدامكم يكون لكم». ولكن من الجهة الأخرى نقرر أن اختبار شعب الله في كلا العهدين ــ القديم والجديد ــ يؤيد هذه الحقيقة: وهي انه توجد أمكنة أقدس من غيرها. إما لخلوتها ودلالتها أو لتذكاراتها والمواعيد المقدسة المرتبطة بها. نعم توجد أمكنة مقدسة يكون فيها العابد أعمق احساساً وأدق شعوراً بحضور الله وقدرته منه في أي مكان آخر ــ أمكنة اختارها الله في عنايته فكانت مهبط وحيه أو مسقط بركاته

فالاختبار الذي اجتاز فيه يعقوب في بيت ايل لهو خير مثال وأقوى برهان على أن أحجار الصحراء قد تمسي مذبحاً مقدساً تربطه بالسماء سلم يصعد الملائكة عليها وينزلون. والأمكنة العادية المألوفة قد نكون محفوفة بتذكارات لا يمحوها كرّ الايام، ومرّ العشيّ. بهذا أقر يعقوب إذ قال: «حقاً ان الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم.. ما أرهب هذا المكان... ما هذا إلا بيت الله. وهذا باب السماء»

في هذا العصر الذي تبلبلت فيه الأفكار عن طرائق العبادة والمكان اللائق بالصلاة ــ سرية كانت أم جهرية، يليق بنا أن نبحث بروح التمعن

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

المثل الأعلى للصلاة المسيحية كما قدمه لنا الرب يسوع. ففي الحوار الذي دار بينه وبين السامرية (يوحنا ٤: ٧ ــ ٢٦) نراها تحاول أن تستخلص من المسيح فكرته عن الصلاة فأشارت بطريقة خفية إلى الجدل القائم بين السامريين واليهود عن مكان الصلاة والعبادة، متسائلة عن أي المكانين أكثر صلاحية وقدسية للصلاة، جرزيم أم أورشليم ولعل تلك السامرية لم توفق إلى السؤال الصحيح لأن السؤال المهم ليس **أين** نعبد، بل **كيف** نعبد ــ بالروح والحق، **ومن** نعبد ــ الله أب الجميع الذي هو روح وهو طالب عابدين روحيين. حسناً قال أحدهم في هذا الصدد:

«... يتحتّم علينا أن نذكر أنفسنا بأن العبادة بالروح لا تعني بالضرورة أن نلقي كل المظاهر المادية كما تفعل شيعة الكويكرز. فالعنصر المادي في الصلاة لا ينافي الروحانية ولا هو عدو لها فقد يصبح «قدساً» !! إنما الذي يناقض الروحي، هو الصورية لا المادية. وهذا هو عنصر الضعف في العبادة اليهودية ــ الصورية».

ولكن لماذا نعتبر بعض الأمكنة أكثر صلاحية وأسمى قدسية وأجل وقاراً وأوفر استلهاماً للصلاة من سواها؟ لثلاثة أسباب: خلوتها، ورمزها، وذكراها. فالصلاة السرية لا تكون حقيقية إلا إذا كان المصلي على انفراد. «وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك واغلق بابك وصل إلى أبيك الذي في الخفاء». هكذا فعل جميع القديسين على مر الأجيال إذ طلبوا وجه الله على انفراد. فابرهيم طلب وجه الله لما مالت الشمس إلى المغيب. ودنا موسى من الله لما رأى العليقة تشتعل في قلب الصحراء القفراء. وارتقى ايليا

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

إلى حضرة الله على قمة جبل الكرمل عند فم المغارة، وأشعياء رأى الله في سكون الهيكل، وجثا دانيال على ركبتيه وهو منفرد موليا وجهه شطر أورشليم، وتضرع بطرس إلى الله على سطح المنزل في يافا، وتمكن شاول الطرسوسي من أن يرى الله على طريق دمشق الموحشة، وكان يوحنا «في الروح» في جزيرة بطمس المنعزلة، وخشع دافيد لفنجستون ساجداً في عشة قروية مصلياً إلى الله حتى دعاه الرب إلى حضرته وهو على هذه الحال. وفوق الكل الرب يسوع المسيح صلى منفرداً في البرية وهو وحيد على قمة الجبل، وحيد في جثسيماني، وحيد حين تركه الجميع وهربوا، وحيد وهو يصلي لأجل الجنود الذين سمروه على الصليب. فالوحدة الحقيقية في الصلاة هي الاختلاء مع الله. هذا كان مشتهى المسيح ومنتهى آماله في الصلاة.

فضلاً عن ذلك فان أفضل مكان للصلاة هو المكان الذي لنا فيه وعد بحضور الله معنا، وفيه صنع لاسمه ذكراً «في كل الأماكن التي فيها أصنع لاسمى ذكراً آتى إليك وأباركك» (خروج ٢٠: ٢٤). فما أحلى خيام الله وما أبهى مساكنه ان يوماً واحداً في دياره خير من الف، حيث يصنع العصفور بيتاً والسنونة عشاً لنفسها هناك كان يلذ لليهودي أن يقيم لله مذبحاً عليه يسكب نفسه أمام الله. فالخيمة في البرية وفي شيلوه، وهيكل سليمان بكل مجده. والهيكل الثاني الذي أقامه عزرا. وذاك الذي أقامه هيرودس الأكبر ــ هذه كلها كانت أمكنة مقدسة للعبادة التقى فيها الله بشعبه الأمين فتجلى لهم فيها. «من يصعد إلى جبل الرب ومن يقوم في موضع قدسه»، «أما بطرس ويوحنا فصعدا إلى الهيكل ليصليا» ــ في كل يوم سبت

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

في المجمع اقتداءً بسيدهما. «والعلية» كانت المكان المختار الذي اجتمع فيه التلاميذ في أورشليم مصلين بنفس واحدة طالبين حلول الروح القدس يوم الخمسين. تحدثنا الأجيال الغابرة ان «سراديب الأموات»، والأماكن المعتزلة، والكنائس، والكاتدرائيات، ومحال الاجتماعات الخاصة، قدمت أبلغ شهادة لصدق الوعد العظيم القائل «لأنه هكذا قال العلي المرتفع، ساكن الأبد، القدوس اسمه، في الموضع المرتفع المقدس اسكن ومع المنسحق والمتواضع الروح» (اشعياء ٥٧: ١٥). فبيت الله الحق هو المكان الذي يعبده فيه شعبه. فلماذا إذاً تغلق أبواب بعض الكنائس طوال أيام الأسبوع، ولا تفتح إلا ساعة وبعض ساعة في يوم الأحد فقط؟

وهنالك عامل ثالث له دخل في قدسية مكان الصلاة ــ نعني به الذكرى. فالذاكرة تحتفظ ببعض المناظر والأمكنة مثلما تحتفظ بالأشخاص والحوادث. جاء في الإنجيل: «ومضى يسوع إلى عبر الأردن إلى المكان الذي كان يوحنا يعمد فيه أولاً. ومكث هناك... فآمن كثيرون به هناك». هذا هو المكان الذي كرز فيه يوحنا بالتوبة وهناك أيضاً اعتمد المسيح على رغم كونه معصوماً عن الخطأ فانفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة وكان صوت من السماء قائلاً: «أنت ابني الحبيب بك سررت». فلا غرابة إذا كان المسيح قد عاد إلى ذلك المكان عينه فآمن به كثيرون هناك. وما من شك في أن تركيز الأفكار من أكبر عون في الصلاة، بل هو قوة لا تقهر. قيل عن مسيحي غيور بسيط القلب انه بقي في الكنيسة بعد نهاية حفلة تذكارية أقيمت في الكنيسة التي اهتدى فيها الجنرال

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

وليم بوث رئيس جيش الخلاص ومؤسسه. فتقدم ذلك المسيحي الغيور إلى المذبح وجثا على ركبتيه قائلاً: «اللهم اعد هنا ما سبقت فعملت. اعد ما سبقت فعملت!!»

فالمكان الأول الذي اعترفنا فيه بايماننا بالرب، والمكان الأول الذي فيه اعتمدنا ساء أكنا صغاراً أم كباراً، والمكان الأول الذي تناولنا فيه العشاء على مائدة الرب، وفيه قطعنا عهوداً ومواثيق، ونلنا بركات وغفراناً، هذه كلها أمكنة مقدسة بذكرياتها

حسناً رسم أحد الشعراء بريشة خياله ولون بيانه، صورة أحد الجنود الذين نفذوا حكم الصلب في فادينا المجيد، لكنه فيما بعد رأى نفسه مضطراً أن يصلي صلاة بهذا المعنى:

«لقد تقامرنا على الثياب التي ارتداها
فكان حذاؤه من قرعني
فألفيته مشوَّهاً وممزَّقاً من وعورة الطريق
التي تؤدي إلى الجلجثة
فسترت به قدميَّ القذرتين
وانطلقت في سبيلي
لكن هذا الحذاء استدرج قدمَيّ إلى سُبُل لم أعرفها
فلم أستطع ان امسك قدميّ عن المسير في ذلك الاتجاه
وإذا بي امام مزرعة من الزيتون
وكان جوُّها مظلماً قائماً فلم أرَ شيئاً

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

والفيتني انا الذي كنت احتقر الصلاة وازدريها
جاثماً على ركبتيَّ عند جذع إحدى الأشجار».

هذا خيال شعريّ لكنه لا يخلو من حقائق جليلة رائعة. لأنه ما من تأثير على العقل البشري أقوى من تأثير الذاكرة وارتباطها بحوادث الزمن. فلم يكن في وسع يعقوب أن ينسى ذكريات بيت ايل، ولو حاول أن يجد إلى ذلك سبيلاً. وبقوة الذاكرة استطاع تلميذا عمواس أن يميزا شخص المسيح عند ما رأياه يكسر الخبز أمامهما. وبقوة الذاكرة تمكن يهوذا الاسخريوطي من معرفة مكان سيده في البستان الواقع على طريق وادي قدرون، لأن سيده كان متعوداً أن يغشى ذلك البستان مع تلاميذه. فالمكان الذي يجتمع فيه المسيح بنا، مهما تكن الظروف المحيطة بذلك المكان، لهو خير موضع للصلاة. حتى داود نفسه... «أعطى سليمان ابنه مثال الرواق وبيوته وخزائنه وعلاليه ومخادعه الداخلية وبيت الغطاء» (أي ٢٨: ١١). وسنرى فيما بعد، كيف أن المسيح ابن داود الأعظم بل رب داود قد رسم لنا المثل الأعلى للصلاة. ومع ان روابي كثيرة، وأمكنة مقدسة وفيرة، قد أدركها القدم، وعبثت بها أيدي الزمن مذ حدثنا عنها العهد القديم، إلا أن «السماويات» التي يحدثنا عنها العهد الجديد ما زالت مرحبة «بالعابدين الحقيقيين الذين يعبدون الله بالروح والحق»

ما زالت الفرصة مهيأة أمامنا لنعبد الله في هيكل مقدس فنرى رؤى مجيدة مثلما رأى زكريا، أو نمشي جنباً إلى جنب مع داود بقلب فرحٍ ونفسٍ طروبة فنحج إلى محافل القديسين، أو أن نتمتع بشركة مقدسة مع

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

جماعة الله المختارة في عليَّة صهيون منتظرين البركة الخمسينية، أو أن نرتقي إلى ما فوق سطح المنزل فنشاطر بطرس رؤيته الجليلة، أو أن نجثو على شاطئ النهر ساجدين وعابدين مع بولس، أو أن نصعد مع سيد الكل ورب الكل يسوع المسيح إلى الجبال العالية لنتنسم نسيم السماء العليل. فلا غرو إذا قال رسول الأمم «أريد أن يصلي الرجال في كل مكان رافعين أيادي طاهرة بدون غضب ولا جدال».

فالاشارة إلى «الأيادي المرفوعة» تدلنا على أن مكان الصلاة وهيئة المصلي مرتبطان ببعضهما تمام الارتباط في ممارسة الصلاة. وكل الأديان العظمى ــ غير المسيحية ــ تعير اهتماماً خاصاً للوضع الذي يكون عليه المصلي وتضع في ذلك قوانين تفصيلية دقيقة. يتبين لنا هذا بنوع خاص في الإسلام حيث يجمع جمهور المصلين صفوفاً صفوفاً في الجامع ويعبرون عن تعبدهم لله بحركات واشارات منسجمة لدرجة يخيل فيها إلى الرائي انه أمام جيش ديني يتدرب تدريباً عسكرياً أقرب منه إلى الرياضة الروحية. يضاف إلى هذا، ان الصلاة في كلا العهدين القديم والجديد مصحوبة على الدوام ببعض حركات جسمانية. ولعل أعم وضع كان يمارسه المصلي في العهد القديم هو الانبطاح على الأرض على مثال الانحناء الكلي الذي كان الشرقي يقدمه قديماً في محضر أحد الحكام المطلقين. يحدثنا حزقيال عن نفسه... «انه قام وخرج إلى البقعة وإذا بمجد الرب واقف هناك كالمجد الذي رآه عند خابور «فخرّ على وجهه» (حزقيال ٣: ٢٤، ٩: ٨، ١١: ١٣). والمسيح نفسه لما ذهب إلى جثسيماني «خرّ على وجهه». والملائكة في المجد يخرون على وجوههم متعبدين لرب

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الجلال والاكرام

وللمصلي أن يقدم صلاته وهو جاثٍ على ركبتيه. هكذا فعل قديماً دانيال واسطفانوس وبطرس وبولس. ومراراً كثيرة يكون المصلي واقفاً. هكذا كانت حنة في الهيكل طالبة إلى الله أن يهبها ولداً من لدنه. كذلك كان موقف سليمان يوم وقف مصلياً لأجل الجماعة ومباركاً اياها. كذلك أيضاً فعل ارميا حين رفع صلاته إلى الله. زد على ذلك ان الفريسيين وتلاميذ المسيح والعشارين قدموا صلاتهم وقوفاً. وفي هذا يقول الدكتور مكفارك: «ارتاى بعضهم من باب الترجيح ان الصلاة العادية كانت تقوم سجوداً أو وقوفاً باحناء الرأس والجسم عند مستهل الصلاة وعند ختامها. لكن الجلوس لم يُذكر سوى مرة واحدة ــ في صلاة الشكر التي قدمها داود (٢ صم ٧: ١٨) وهي تعتبر من الشواذ ولعلها تُعزى إلى ضعف داود وشيخوخته. لأنها لا تحمل معها معنى الجلال والوقار اللازمين للمثول أمام ملكنا السرمدي الغير المنظور الذي ندعوه ربنا والهنا

ان رفع الايدي نحو السماء أو تجاه اورشليم سواء أكان مصحوباً بالسجود أم بالوقوف كما في ١ أي ٦: ١٣ خروج ٩: ٢٩، ١ مل ٨: ٢٢ و٢٤، كان أمراً شائعاً لدرجة حُسب فيها مرادفاً للصلاة نفسها (مز ١٤١: ٢) والظاهر أن العينين كانتا مفتوحتين في الصلاة كما يستفاد من قول البشير عن العشار: «وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء» (مرقس ٦: ٤١، ٧: ٣٤) وأما عادة الغربيين في اغماض العينين وقت الصلاة، فلا ندري لها أساساً، ولعل الشرقيين غير مجمعين على استعمالها دواماً. وليس من

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

المستبعد انها تطبيق معنوي لقول المسيح: «ادخل مخدعك وأغلق بابك». فكما ان الباب المغلق يحجب الإنسان عن العالم الخارجي، كذلك العين المغمضة تحجب العالم الخارجي عن الإنسان

لكن ليس مكان الصلاة ولا الهيئة الجسمانية التي يكون عليها المصلي بالأمر الأهم في الصلاة، غير أنه من واجبنا أن نعيرهما شيئاً من العناية لأن الصفاقة في الصلاة لا تساعد على تقوية الحياة الروحية. حسناً قال اغسطينوس الحكيم:

«في الصلاة لله يعبر المصلون عن رغبات قلوبهم وحالاتهم النفسية أمام الله يتحريك أعضاء الجسد وفق هذه الرغبات والحالات ــ فتارة يجثون بركبهم طوراً يرفعون أيديهم ومراراً ينبطحون على الأرض. غير ان الله في غنى عن هذه الحركات في ذاتها لأنه يعرف خفايا القلب واتجاهاته. ولكن هذه الحركات تعين الإنسان نفسه على التعبير عن أشواق نفسه الباطنة بكل حرارة وحماسة. ومع اني موقن ان هذه الحركات الجسدية تصدر عن الإنسان تلبية لايحاء باطني صادر عن العقل، الا ان هذه الاحساس العقلي الباطني يتزايد بسبب هذه الحركات الخارجية، وان كنت لا أدري كيف. وهكذا تصبح هذه الحركات الجسمانية محرضة ومقوية لاحساس القلب في حين قصد بها أصلاً أن تكون معبرة عنه. هذا فعل وتفاعل. ولكن إذا شعر احد الناس انه بسبب ضعف جسدي لا يقوى على تحريك اعضاء جسده وفق احساسه الباطني فلا يداخله الفكر ان انسانه الباطني متعطل عن الصلاة لأن عيني الله تنظران إلى الداخل فتلمحان التوبة الحقيقية الخفية التي بها تكون النفس منبطحة أمام الله»

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الفصل الرابع

عنصر الميقات في الصلاة

قد يتعجب البعض أو يدهشون ــ ولعلهم يتعثرون ــ إذا سمعوا من رجال الله على مرّ الأجيال انه من الواجب على المرء أن يقضي ساعات متواليات في خلوته مع الله. ولكن عجبهم يبطل متى ذكروا المسيح نفسه والأوقات التي كان يقضيها في الصلاة. لقد كان معصوماً عن الخطأ وشبه الخطأ، فلم يكن في حاجة إلى الاعتراف بذنب أو خطية، وكان على الدوام عائشاً في حضرة الله ومتمتعاً بجلال قوته، لكنه بالرغم من هذا كان يسبق الشمس في طلعتها بساعات ليستمتع بطلعة الآب. وكان يقضي الليل كله في الصلاة لله. وإذ كان في جهاد كان يصلي «بأشد لجاجة». «وقال لهم أيضاً مثلاً في انه ينبغي أن يُصلي كل حين ولا يُمَلّ». وعلمنا ان ابانا السماوي يمنحنا الروح القدس استجابةً للجاجتنا في الصلاة (لوقا ١١: ١ ــ ١٣)

يحسن بنا قبل كل شيء ان نسأل أنفسنا عن ماهية الوقت، حتى يمكننا أن نتعرف مقدار الوقت الذي نصرفه في الصلاة، ولا مشاحة في أن ماهية الوقت في عصرنا الحاضر تختلف عنها في العصر الغابر. فالفلاسفة واللاهوتيون قد عالجوا مشكلة الوقت. فحدثنا أحدهم قائلاً: «كل الألغاز والمعضلات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمعضلة الوقت. فلو حللنا معضلة الزمن لانحلت أمامنا كل المعضلات المختصة بالفلسفة العقلية». فالمتصوف والعالم كلاهما

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

متحير في تحديد النسبة الحقيقية بين الزمن والأبد ــ أهي نسبة تتناول النوع أم المقدار أم كليهما معاً!؟ فهل الأزل والأبد هما مجرد امتداد للزمن أم هما فوق متناول الزمان والمكان. قال الثاس: «ان كل مدة من الزمن لها صلة راسية بالأزل. وان الأزل كائن فوق الوقت. فالوقت مليء بالأبد على قدر امتلاء الذرة بالقوة». فكل نقطة في الزمن قد تكون نقطة فاصلة بين أبديتين: «الآن وقت مقبول الآن يوم خلاص». فالساعة الحاضرة والدقيقة الراهنة لهما قيمة ذات اتصال بالأزل والأبد

فقيمة الوقت لا تُعرف خطورتها الا متى لاحظنا صلة الوقت بالأزل والأبد. وهذه الصلة غاية في الدقة لأن الوقت يولي سراعاً

قال كارل هيم: «تتبين ميزة الزمن في أن كل دقيقة تمر لا تعود. ولن يمكن أن تُعاد. قبل حلولها كان كل شيء في حيز الامكان. أما وقد ولت فقد انقضى بها كل شيء وخُتمت الأسفار. ومن ورائها يقف الماضي جامداً لا يبدي حراكاً. لأن التاريخ شبيه بمياه جارية ولكن متى مرت بنا حوادثه تصبح في حكم التماثيل التي لا تقوى على الحركة»

كل هذا له صلة وثيقة بالصلاة. فنحن في مسيس الحاجة إلى الله كل لحظة. لأننا من لحظة إلى أخرى محفوظون بعين رعايته. وما لم ننفق الوقت الطويل لنكون قديسين في هذه الحياة، فلن تتاح لنا القداسة في الأبدية. ومتى أردنا أن تكون حياتنا متصلة اتصالاً حياً وثيقاً بالله، وجب علينا أن نصلي بلا انقطاع. فمن الواجب علينا أن نصلي دواماً، لأننا محاطون بالأعداء من كل صوب، ولأن نيران التجارب تحيط بنا من كل حدب. ينبغي أن

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

نصلي كل وقت لأننا لا ندري في أي وقت تواجهنا المواقف الحاسمة في الحياة ولا في أي لحظة منها ينتهي الزمن الحاضر ليبتدئ الأبد

فالصلاة في نظر كل قديسي العهد القديم والعهد الجديد ــ من يعقوب في فنوئيل إلى بولس في سجنه الروماني ــ كانت جهاداً وصراعاً ضد اعداء غير منظورين. فعلى الجندي المسيحي أن يكون دائماً مصلياً ساهراً، شاكي السلاح، متحفزاً في كل دقيقة لكل هجوم يصوب ضده. كانت السيدة امي ولسون كرميكيل مرسلة مقدامة في بلاد الهند لكنها اصيبت بمرض خطير نتيجة حادث مفاجئ. وقع لها عام ١٩٣١. فكتبت كلمة عن خدمة صلاة التشفع، جاء فيها: تحت عنوان: «من الورد إلى النعش»:

«لا مهادنة في حربنا الروحية ــ ولا إلى يوم واحد. فلا يمكن اعفاء جندي ولا اخلاء سبيله. قد يدعونا رب الجنود إلى الخدمة في الميادين المنظورة، فنخلو باستمرار إلى الميدان الغير المنظور، لتتجدد قوانا ونقوم بالخدمة اللائقة بهذا الميدان. وقد يسحبنا من الميدان المنظور لنقصر خدمتنا على الميدان الغير المنظور. فمن الواجب أن تُمحى كلمة «رديف» من معجم الحرب الروحية. لأننا جنود ملك الملوك فيجب أن نكون مشهري السلاح على الدوام»

لنشهر أسلحتنا إلى العلاء
وليقلع كل جندي عن الخمول
لأن دعوتنا السماوية، وقانون جنديتنا
يحرمان علينا أن نغمد سيوفنا في ورود الكسل

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

وهل من تفسير أفضل من هذه الكلمات يريق نوراً على قول الزبوري في مزمور ١٤٩ «ليبتهج الاتقياء بمجد. ليرنموا على مضاجعهم. تنويهات الله في أفواههم وسيف ذو حدين في يدهم»

وهنالك سبب آخر يدعو إلى تخصيص وقت كاف للصلاة. ليس فقط لأن الوقت وديعة ثمينة قصيرة المدى مسلّمة إلينا. بل لأن أهم الأشياء وأفضلها لا يمكن أن تُنجَز بعجَلة. فالصلاة تستلزم وقتاً كافياً لتكون صلاة بكل معنى الكلمة. فالعالم الطبيعي تسوده نواميس للنمو لا يمكن الوسائل الصناعية أن تتعجلها. فالشجرة المتأصلة جذورها في الأرض التي تنمو مدى الأيام والسنين مغتسلة بأشعة الشمس في النهار ومتعطرة بالندى في الليل، هي غير اليقطينة التي في ليلة تترعرع وفي ليلة تقطع. فما أحوجنا إلى وقت كاف قبل الشروع في الصلاة لنشعر أنفسنا بحضور الله. ووقت أثناء الصلاة لنتحقق حاجتنا وحاجة العالم المحيط بنا، ووقت بعد الصلاة لنتأمل في مراحم الله العجيبة ونشكره على ما وعد

ان الاستعداد للصلاة لازم لزوم الصلاة نفسه. فليس من الجائز لنا أن نقتحم إلى محضر الله. وقع في يدي كتيب عن التعبُّد اسمه «دقيقة الله» ومع كل ما في هذا الكتيب من حقائق ثمينة وجليلة الا انني لا افهم لماذا يكتفي أولاد الله بأن يكرسوا لابيهم السماوي دقيقة واحدة ويقفوا الالف والاربعمئة والتسعة والثلاثين دقيقة الباقية على ذواتهم. والظاهر ان مشاغل الحياة الكثيرة ومطاليبها المنوعة قد الجأت البعض إلى أن يحشروا صلاتهم

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

في لحظات معدودات. ولعل هؤلاء يكتشفون سراً غامضاً من ذلك الكاتب المجهول، في صلاته المعروفة بـ «صلاة المطبخ»:

«يا رب كل الأواني والأوعية والأمتعة. أنت عالم بأني لا أملك وقتاً كافياً لآتي بالأعمال الجليلة التي يأتيها القديسون. ولا للسهر الطويل بين يديك ولا لكشف الرؤى السماوية ابان السحر. ولا قوة عندي تهز اعتاب السماء فاللهم صيّرني قديساً وانا أهيئ الطعام واغسل الأواني

فمع انه يجب عليَّ أن أتحلّى بيدي مرثا، الا أنني متجمّل بعقل مريم فحينما المع الأحذية، اذكر حذاءك الذي جملته قدماك

وحينما أنظف الأرض اذكر كيف دست أنت أديم الغبراء

فلتكن خواطري هذه مقبولة لديك يا ربي لأني لا أملك وقتاً لمزيد»

وكما أن الاستعداد للصلاة يتطلب وقتاً كافياً، كذلك أيضاً **التأمل** في الصلاة يستلزم وقتاً. ويقيننا أن الفرق بين المسيحي الفاتر وبين القديس هو أن أولهما يلفظ صلاته على عَجَل، والثاني يقضي وقتاً كافياً منتظراً الرب، فيسَكِّت قلبه أمام الله ويسكبه لديه فيطهّر ما فيه من زغل ودنس. ومن المحال أن يحصل المؤمن على قنية القلب المنكسر وهو يلفظ صلاة صورية أمام الله أو يكرر صلاة كان قد سبقه غيره في رفعها إلى مولاه. فضلاً عن ذلك، لن يُتاح لنا أن نتعلم صبر الصلاة الغير المستجابة ما لم نقض وقتاً طويلاً أمام عرش النعمة مراراً وتكراراً. حسناً قال اغسطينوس: «ان الله صَبُور لأنه سرمدي». وما لم نتدرّب على الصبر والتأني في الصلاة، لا يمكننا أن نتدرَّب على مصادقة خالقنا وفادينا. ولقد أجاد أحد المتصوفين المعاصرين إذ قال:

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

«لو انصرفنا بكليَّاتنا وجزئياتنا إلى الصلاة المنظّمة مدة أسابيع قليلة، لملكنا العجب من فرط ما ينكشف لنا من ضعفاتنا وجهلنا بأوليات ديننا، ومن عدم تنظيم اتجاهنا الروحي».

الصلاة هي ترويض عضلات النفس. فإذا ابتغينا النموّ في النعمة والمعرفة، وجب علينا أن نعكف على هذه الرياضة الراقية.

وبما أن لكل شيء زماناً ولكل أمر تحت السموات وقتاً، فقد يجمل بنا أن نسأل عن أنسب الأوقات للتأمل، والصمت، والحمد والتمجيد والاعتراف والتشفع، ونحن في زحام هذه الحياة مثقلون بشواغلها المنوعة. فإذا ألقينا هذا السؤال على دانيال لعرفنا انه كان «يجثو على ركبتيه ثلاث مرات في اليوم ويصلي ويحمد قدام الهه» (دانيال ٦: ١٠). ولو ألقيناه على داود لاجابنا أنه «مساء وصباحاً وظهراً كان يشكو وينوح أمام الهه فيسمع صوته» (مزمور ٥٥: ١٧). وإليك أيضاً جواب مرنّم آخر: «سبع مرات في النهار سبحت الله على أحكام عدله» (مزمور ١١٩: ١٦٤). وفي العهد الجديد يوصينا بولس أن نصلّي بلا انقطاع وفي كل حين. ويحدثنا كاتب سفر الأعمال أن بطرس كان متعوداً أن يصلي في الساعة الثالثة، والساعة السادسة، والساعة التاسعة. وفي مزمور ٦٣: ٥ و٦ نسمع داود مترنماً: «كما من شحم ودسم تشبع نفسي وبشفتي الابتهاج يسبحّك فمي. إذا ذكرتك على فراشي. في السهد ألهج بك». ويعرفنا تاريخ الكنيسة ان القس جون أحد خدام كنيسة الروم الارثوذكس كتب كتيباً عن كيفية تكريسنا لكل يوم قال:

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

«حالما تنهض من فراشك قل: «باسم الآب والابن والروح القدس استهل يوماً جديداً، عندما استيقظ اشبع بشبهك». وعند ما تغتسل، قل: «اغسلني من خطايا الليل فأتطهّر. اغسلني فأبيضَّ أكثر من الثلج». وعند ما ترتدي رداءك قل: «قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله والبسني الرداء الكتاني النقي الذي هو تبرُّرات القديسين». وعند ما تقدم على طعام الافطار الذي به تقطع فترة صيام الليل، تفكَّر في الوقت الطويل الذي قضاه المسيح صائماً وباسمه تناولْ طعام الافطار ببساطة وابتهاج قلب. وعند ما تتجرع الماء أو تشرب الشاي تفكر في العطش المحرق الذي عاناه فاديك في أعماق نفسه. وان أردت أن تسير ماشياً أو راكباً براً أو بحراً أو جواً، فعليك أن تصلي قبل كل شيء إلى الرب ليحفظ دخولك وخروجك. وإذا هاجت عليك عاصفة، تفكر في العواصف النفسية التي تحتاج نفسك ونفس سواك. وإذا كنت طالباً أو استاذاً أو ضابطاً أو موظفاً أو مصوراً أو صانعاً فاذكر أن خير فن عليك أن تلمّ به هو أن تكون خليقة جديدة في المسيح يسوع. في كل يوم وفي كل مكان جاهد أن تُنمي هذه الخليقة الجديدة التي هي أنت. اعمل بكل قوتك في العمل الذي دعيت إليه ــ ولكن قبل كل شيء وابان كل شيء تمم خلاصك بخوف ورعدة.

حدثنا السير توماس براون مؤلف كتاب «الطب الروحاني» على رغم ازدحام وقته بأعماله الطبية الكثيرة ــ قال انه كان يصلي كلما رأى كنيسة أو دخل شارعاً. وشارلس سيمون كرس أربع ساعات من كل يوم للصلاة، وشارلس وسلي افرز ساعتين يومياً لهذا الغرض عينه. والأسقف

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

لانسلوت اندروز تعود أن يصرف خمس ساعات كل يوم في الصلاة والتأمل. كان معاصراً لشكسبير وكان أحد أعضاء اللجنة التي وضعت للكتاب المقدس تلك الترجمة الانجليزية المعروفة بترجمة الملك جيمس. وكان جو حياته مفعماً كله بالصلاة. كما يستدل من كتابة الخالد القيم المسمى: «تأملاتي السرية». وفي سنة ١٩٠٥ اشتريتُ من مدينة بومباي نسخة من هذا الكتاب من الطبعة التي أشرف على مراجعتها الدكتور الكساندر هويت فانتفعت بها في فرصة صلاتي السرية أكثر من أي كتاب آخر بعد الكتاب المقدس. فكل الأشياء التي جعلها الأسقف اندروز موضوعاً لصلاته، والكيفية التي بها صلى وثابر على الصلاة قد ظلت إلى حين، سراً مخفياً عن عيون العالم. ولأجلها استحق المجازاة لأنه أجراها في الخفاء. الا انها كشفت للعالم بعد وفاته يومَ طُبعت ونشرت. وفي الواقع يحس المرء بالخجل يعلو وجهه ــ والاضطراب يغمر نفسه عند ما يتأمل في حياة التعبد التي قضاها رجال الله الذين كانت لهم صلة وثيقة بالله ــ أمثال ديفد برينارد المرسل بين الهنود الامريكيين، وديفد لفنستون الذي شفى جراح افريقيا الدامية، وهدسون تيلور مؤسس أكبر مرسلية في الصين. وهيد المشهور بهيد «المصلي» في الهند الشمالية، وجورج بون قديس بومباي ــ وهنري مارتين الذي انفق وأُنفق في بلاد العجم. وفرنسيس زافير ذو المسبحة «روزري» المشهورة، وجيمس جلمور الذي قضى في أدغال مونغوليا، والأسقف بومباس الذي قضى في منطقة القطب الشمالي، وماري سلسور التي صارعت مع الله لأجل خلاص نفوس أهل كاليبار

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

كل هؤلاء يخجلوننا في هذه الحياة، ويقومون يوم الدين للحكم علينا نحن الذين نهمل الصلاة بحجة عدم وجود وقت كاف للصلاة

ولطالما أكد لنا نفر غير قليل من رجال الصلاة اننا لن نتذوق حلاوة الصلاة وبهجتها إلا متى غُمرت كل أوقات حياتنا بالصلاة، ثم قلنا بعد ذلك هل من مزيد؟ يحدثنا التاريخ عن فرنسيس الاسيسي انه عكف على الصلاة مدة طويلة قبل أن يأتيه الجواب وعندئذ غمره فرح الرب فصار له خير قوة. فلا نندم على الوقت الذي نقضيه في الصلاة ــ وان طال ــ قبل أن يأتي الرب بالجواب لأن الخسارة في هذا الباب هي خير ربح. ولا يبرحن أذهاننا أن الرب ظهر للتلاميذ عند بحر طبرية بعد أن اعياهم التعب ولعب اليأس بقلوبهم في الهزيع الرابع المعروف «بالفجر الزائف». فعلينا ان نثابر على الصلاة لئلا ندخل في تجربة. وحينما تهاجمنا التجربة علينا أن نستزيد من الصلاة. في فرصة الصلاة المبكرة تحظى بجلال التأمل بصمت وخشوع في حضرة أبينا وفي فرصة المساء نستمتع ببهجة الشركة معه ونراجع ما مر بنا من انتصارات ليست هذه الاختبارات موقوفة على «المتصوفين» ولا على طبقة معينة ممن ينقطعون للعزلة والاختلاء لكنها حق مكتسب وبكورية لكل من يدنو من عرش النعمة. هنا تفوز النفس بسر محضر الله. إذ تجد فيه خير مخبأ. فانتظروا الرب. وأقيموا المذابح المتهدمة. أوثقوا الذبيحة بربط إلى قرون المذبح انتظروا النار القدسية التي هي موقد شرر الايمان الحي، وانارة الروح القدس.

ولقد اهتمت الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية بابتكار طرق ووسائل لتنشيط الإنسان وحثه على المثابرة في الصلاة. فوضعت كتاباً خاصة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

يستعين بها الإنسان في هذا السبيل منها كتاب الصلاة» و«كتاب التسابيح» و«روزري» وغيرهما. ومع أن فادينا علمنا أن لا نكرر الكلام باطلاً في الصلاة كما يفعل الأمميون اعتقاداً منهم ان تكرار الكلام يؤثر في الهتهم علها تستجيب صلواتهم، ولكن لا يفوتنا أن نذكر أن الفادي يوصينا مراراً وتكراراً في الانجيل بضرورة المثابرة واللجاجة في الصلاة. ولقد وضع الأسقف اندروز صلاة مطولة نوعاً لكنها تسمو بشعور المصلي عند حلول كل ساعة من ساعات اليوم، وها نحن نورد منها ما يأتي ليكون لهذا الفصل خير مختتم:

يا من جعلت الأزمنة والأوقات في قبضة سلطانك
امنحنا نعمة حين نصلي إليك في كل مناسبة
وخلصنا يا من لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا
وُلدت في فخمة الليل الداجي الظلام

وامنحنا ان نولد ثانية، وان نتجدد كل يوم بعمل روحك الأقدس فينا إلى أن يتصور المسيح فينا ثانية فنبلغ إلى قياس قامة ملئه المجيد

اللهم خلصنا يا من عند شق الفجر، قبل أن تقوم عروس النهار من خدرها قد قمت أنت يا شمس البر من القبر

واقمنا أيضاً معك لنسلك كل يوم في جدة الحياة
موحياً إلينا وباعثاً فينا روح التبكيت والندامة
اللهم خلصنا
يا من الساعة الثالثة ارسلت الروح القدس فحل على الرسل
ولا تنزع هذا الروح القدوس منا

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

بل جدد عمله وحلوله في قلوبنا كل يوم وكل اليوم
اللهم خلصنا
يا من في الساعة السادسة من اليوم السادس
قد سمرت معك على الصليب كل خطايا العالم
ومحوت صك دين خطايانا بكتابة يدك الجريحة الدامية
ويا من في الساعة السادسة من النهار
أنزلت ملاءة عظمى من السماء إلى الأرض رمزاً لكنيستك
اقبلنا فيها اللهم نحن الأمم الخطاة
وارفعنا بها إلى حضرتك في السماء
اللهم خلصنا يا من في الساعة السابعة
انتهزت الحمى ففارقت غلام قائد المئة
انتهر بقوتك الراحمة كل حمى معنوية من قلوبنا
وانتزع كل داء أدبي من نفوسنا
اللهم خلصنا
يا من في الساعة التاسعة ذقت مرارة الموت
لاجلنا ولاجل خطايانا
أمت فينا أعضاءنا التي على الأرض
ولاشِ فينا أعضاءنا كل ما تراه منافياً لإرادتك
اللهم خلصنا
يا من أردت أن تكون الساعة التاسعة مكرسة للصلاة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

اسمعنا ونحن نصلي إليك في ساعة الصلاة هذه
وامنحنا ما نطلبه ونبتغيه
اللهم خلصنا
يا من أنعمت على رسلك في الساعة العاشرة
أن يجدوا ابنك فتهللوا من أعماق نفوسهم قائلين
لقد وجدنا مسيا
اكشف عن قلوبنا نحن أيضاً حتى نجده هو بذاته
ومتى وجدناه امتلأت قلوبنا بشراً وحبوراً
اللهم خلصنا
يا من في الساعة الحادية عشرة من النهار
جُدتَ تكرماً فأرسلت إلى كرْمك
أولئك الذين كانوا واقفين في الطريق بلا عمل طوال النهار
ووعدت كلاّ منهم بأجر من عندك
امنحنا اللهم نفس هذه النّعمة
ومهما تكن فرصتنا متأخرة حتى الساعة الحادية عشرة
تحنّن علينا راحماً وردنا إليك
اللهم خلّصنا
يا من في ساعة العشاء المقدَّسة
رضيت أن تضع رسم سر جسدك ودمك
أعطنا أن نكون نحن أيضاً متذكرين

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

ومتناولين نفس هذه الفريضة
لكن لا للدينونة بل لمغفرة الخطايا
وأن نتحقق مواعيد العهد الجديد
اللهم خلّصنا
يا من في ساعة العشاء
رضيت أن تنزل عن الصليب
وتُوضَع في القبر
ارفع عنا خطايانا وادفنها في قبرك
مكفراً وساتراً بصلاحك كل شر فعلناه
اللهم خلّصنا
يا من في ساعة متأخرة من الليل
نفخت من روحك في رسلك
ومنحتهم قوة لمغفرة الخطايا أو لامساكها
اعطنا نحن أيضاً أن نختبر هذه القوة
لمغفرة الخطايا لا لامساكها
اللهم خلّصنا
يا من في منتصف الليل أقمت داود نبياً لك
وبولس رسولاً يحمل رسالتك، تمجيداً لاسمك
امنحنا نحن أيضاً أغاني في الليل
لنلهج بك على مضاجعنا

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

اللهم خلّصنا
يا من أُعلنت بفمك الطاهر
ان العريس قادم في منتصف الليل
اجعل اللهم هذا النداء يدوي باستمرار في آذاننا
هو ذا العريس قادم
لنكون على الدوام مستعدين للقائه
اللهم خلّصنا
يا من عند صياح الديك
عنَّفت بلطفٍ رسولك
ورددته إليك بالتوبة
تفضّل بنعمتك وعنفنا وأنصحنا
فنقتفي آثاره ونسير في خطواته
في التوبة والندامة
عن كل شيء أخطأنا به إليك وأثمنا
الله خلّصنا
يا من أُرسلتَ نورك
فأبدعتَ الصباح
وأشرقت شمسك على الصالحين والطالحين
أنر ظلمة قلوبنا
بمعرفة حقك

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

وارفع اللهم نور وجهك علينا
لكي نرى بنورك نوراً
فنرى في النهاية نور مجدك بنور نعمتك
يا من تُقيت كل ذي جسد
وتطعم أفراخ الغربان
الصارخة إليك
ويا من رعيتنا منذ شبابنا حتى الآن
املأ قلوبنا طعاماً وبهجة
حتى تبنى قلوبنا بفيض نعمتك
يا من أنهيت النهار بالمساء
لتجعل مساء الحياة ماثلاً لدى أذهاننا
اعطنا أن نعتبر على الدوام
ان حياتنا تمر كيوم واحد
فنذكر أيام الظلام
وان نذكر أن أيام الظلمة كثيرة
وان الليل لا محالة قادم
حين لا يستطيع أحد أن يعمل
امنحنا أن نتقي الظلام بأعمال الخير والصلاح
لئلا نُطرَح أخيراً في الظلام الدامس
وهب لنا أن نصرخ إليك على الدوام

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

قائلين امكث معنا يا ربنا
لأن نهار الحياة قد مال وأقبل علينا المساء
ان عمل الخالق كله عدل وحقّ
وعمل الفادي كله عطف وانشقاق
وعمل الروح القدس كله تعزية ورفق
هذا هو المعزي الآخر
الذي مسحنا
وختمنا
وأعطانا العربون المقدس

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الفصل الخامس

اقتدار الصلاة

لا جدال في أن للصلاة قوة. فأكثر الناس روحانية وأرسخهم ايماناً، والآباء الأولون، والأنبياء، والرسل قد وجدوا في الصلاة قدرة. وفادينا نفسه لم يستغن عن الصلاة. فالاتصال بالله وبالعالم الغير المنظور ليس فقط أمراً واقعياً محققاً لدى الذين يصلّون بل هو أيضاً مصحوب على الدوام بقوة فعَّالة يتوشح بها من يُصلَون «لأن منتظري الرب يجدّدون قوة»

فطبيعة الصلاة تؤيد الاعتقاد بأن للصلاة قوة مقتدرة فعَّالة. فعند ما يحدث تماسّ بين قطب سلبي وقطب ايجابي في بطارية كهربائية ينتج عن هذا التماسّ شرر ناريّ. وكذلك ــ والقياس مع الفارق ــ عند ما يحدث تماسّ في الصلاة بين عجز الإنسان ويأسه وبين قدرة الله ويأسه، فمن هذا التماسّ تنتج نتائج ذات بال. فالصلاة هي التسامي بالذهن والقلب والإرادة إلى حضرة الله. والله من جانبه يستجيب صرخة الإنسان المخلوقة نفسه على صورة الله تعالى

عند ما يمسك الإنسان بالله في الصلاة، يُمسِك الله بالإنسان. «غمرُ ينادي غمراً». فغمر بؤسنا ينادي غمر مراحم الله. عند ما يلتقي البحر الهائج، بالجوّ العابس المكفهرّ، تكثر الميازيب. «كل تيارانك ولججك طمت عليَّ»، «هذا المسكين صرخ والرب استمع»

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

اننا نستدل على اقتدار الصلاة من طبيعتها، ومن اختبارنا، ومن الشهادة المتواترة لكلمة الله سواء أكانت مصوغة في قالب وصيَّة أو وعد أو مثال

فكل ما يدَّعي به بعض المعترضين على اقتدار الصلاة باسم الفلسفة أو العلم إنما هو مبني على فرضٍ باطل ينكر كل شيء فائق للطبيعة. فنفس هذا السهم الباطل القاتل يصوّبونه نحو الاعتقاد بميلاد المسيح من عذراء، وعقيدة الثالوث، والايمان بقيامة الرب يسوع وصعوده بالجسد

ولكن علينا أن نذكر ان «في السماء والأرض أشياء كثيرة تفوق حَدَّ أحلام» الفلسفة البشرية

«إذا كانت أنامل الراديو النّحيلة توقّع أنغاماً شجيَّة
وترسلها على أجنحة الأثير فتفري طياتَ الظلام عبر البحار وعرضَ القفار.
وإذا كانت أوتار القيثارة
ترسل هزات نغماتها فوق الجبال والآكام والكهوف
وإذا كانت الأغاني المنطلقة في الفضاء كأريج الورود الدامية يخترق طيات الهواء
فكيف نعجب نحن البشر إذا قيل لنا أن الله يسمع الصلاة ويستجيب الدعاء»

ان الاعتراضين الرئيسيَّين اللذين يدعيهما أدعياء العلم على اقتدار الصلاة، هما: ان الصلاة تتعارض مع النواميس الطبيعية المرئية، وان الصلاة لاله كلّي القدرة وكلّي المراحم، انما هي عملٌ سليط وَقِح. لماذا ننتظر من الله أن يعطِّل «حركة مرور» نواميسه الطبيعيّة العظمى، لكي تمرّ عربة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

صلواتنا الهزيلة؟ ولماذا نهتم بأن نسأل ونحن نعلم «ان أبانا السماوي يعلم ما نحتاج إليه قبل أن نسأله»

لكن هذين الاعتراضين يتبخّران امام حرارة ايماننا بشهادة كلمة الله، وثقتنا بشهادة اختبار شعبه منذ خلق العالم. وما علينا الا أن نذكر ونذكّر ان مثيري هذين الاعتراضين لا يفقهون شيئاً عن معنى الصلاة العملية في جانبها الاختباري. فمَن مِنَ الناس يستمع لمحاضرة عن الكيميا يلقيها إنسان لم يدخل معملاً كيماوياً طول حياته؟ ومَن منَّا يحترم رأياً في الموسيقى ابتدعَهُ أصمُّ أبكم؟ ولكننا نصدق المسيح عند ما يحدثنا عن الصلاة لأنه إنما يتكلم بسلطان. ان أحداً ما لم يصلِّ قط مثلما صلّى هو. كذلك لم يجرؤ أحد ان يعلّم الآخرين عن قوة الصلاة بمثل الوضوح واليقين اللّذين علم بهما المسيح. وليس لنا من ردّ على ما يسمونه بالاعتراض العلمي أقوى من الردّ الآتي الذي وضعته السيدة دورا جرينو بل الخبيرة بقوة الصلاة وشدَّة اقتدارها. قالت:

«... هل بامكان الطلبات التي تلفظها الشفاه المؤمنة أن تغيّر مجرى الحوادث فتعجله أو تعطّله؟ أيمكن الصلاة أن تخلق من العدم أشياء غير موجودة؟ أو بعبارة أدقّ أيمكن أن تقع حوادث لم يكن لحدوثها من عامل سوى الصلاة؟ نعم. وألف نعم. ولو قصر ايماننا دون ذلك لقضينا ببطلان قوة الآيات الكتابية التي تشهد لقوة الصلاة، وحسبنا ان الله قد وضع في أيدي خلائقه آلة ميكانيكية ضخمة لا لينتفعوا بها فعلاً بل لتكون بين أيديهم ألعوبة علمية للتسلية وكفى، مثلما توضع اللُّعب بين أيدي الأطفال لتمرّن ملكاتهم الفكرية، فلا تبقى للصلاة من قيمة سوى أنها تدرب ملكات

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

النفس على الاتصال بالله. لو رخصت قيمة الصلاة إلى هذا الحدّ، إذاً لحقّ لغير المؤمن أن يستخف بالصلاة وجاز للمؤمن أن يهمل هذا الواجب المقدس بل أن يقصِّر فيه، وأن تضعف ثقته به. أما الاعتراض المعتاد التي يتردَّد مراراً وتكراراً على ألسنة الكثيرين بقولهم أن الصلاة تتعارض مع النواميس الطبيعية التي رتبها الله في الكون، فمن السهل أن نردّ عليه بقولنا «ان الصلاة نفسها هي احد هذه النواميس التي وضعها ورتب عليها بعض النتائج التي تتبعها»

يتضمن الكتاب المقدس شهادات قوية متواترة لاقتدار الصلاة. فكل وصية متضمنة فيه عن الصلاة، وكل أمر لنا بأن نرفع طلباتنا لدى الله ــ كل هذا يُحسب لغواً إذا لم تكن الصلاة مقتدرة فعَّالة: «اسألوا تعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يُفتح لكم». فكيف استطاع المسيح أن يقول هذا ما لم تكن هنالك أذن مستمعة، وشخصية الهية مستجيبة، ويدٌ قوية تُمسك بالمزلاج لتفتح الباب؟ قديماً تحدَّث الرب لموسى من جهة عبدٍ ذليل قال: «يكون إذا صرخ إليَّ أني أسمع. لأني رؤوف» (خروج ٢٢: ٢٧). وأُعطي سليمان هذا الوعد العظيم: «إذا تواضع شعبي الذي دُعي اسمي عليهم وصلوا وطلبوا وجهي ورجعوا عن طرقهم الرديئة فاني أسمع من السماء وأغفر خطيتهم وأُبرئ أرضهم» (٢ أيام ٧: ١٤). وفي سفر المزامير نجد مواعيد تفوق الحصر تؤكد لنا أن الله يسمع الصلاة ويستجيب لدعاء (مزمور ٩: ١٢ و١٠: ١٧ و٣٤: ١٥ و٣٧: ٤ و٥٦: ٩ و٦٢: ٢ ــ ٥ و٦٩: ٣٣ و٨١: ١٠ و٨٦: ٥ و٩١: ١٥ و١٠٢: ١٧ و١٤٥: ١٨). «التفَتَ إلى صلوة المضطرّ ولم يرذل دعاءَهم... لأنه أشرف من علوّ قدسه. الرب من السماء إلى الأرض نظر. ليسمع أنين الأسير

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

ليطلق بني الموت». ومن يتصفّح كتابات اشعياء وارميا وحزقيال ويوئيل وعاموس وصفنيا وذكريا يجدها كلها عامرة بالمواعيد العظمى والثمينة المقدمة لكلّ من يصلي

وفوق ذلك، فان الباب الذي لم يكن في العهد القديم مفتوحاً إلا جزئياً قد أضحى في العهد الجديد مفتوحاً على مصراعيه. وهو يقدم لنا بسعة الدخول إلى موارد لا تُحصى من المواعيد العظمى الجليلة التي جعلها الله في متناول كل من يصلي: «لان كل من يسأل يأخذ»... «إذا اتفق اثنان منكم على الأرض في أي شيء يطلبانه فانه يكون لهما من قِبَل أبي الذي في السموات»... «كل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه». «مهما طلبتم من الآب باسمي، يعطيكم»

لذلك تقدم الرُّسل «بثقة إلى عرش النعمة فنالوا رحمة ووجدوا نعمة عوناً في أوقات احتياجاتهم». فقد طلبوا من الله الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعيّر. نعم صلوا لأجل أنفسهم، وتوسلوا لأجل بعضهم البعض وتضرعوا لأجل كنيسة الله بلا ملل ولا كلل، لأنهم كانوا يعلمون علم اليقين ان «طلبة البار تقتدر كثيراً في فعلها». ويحدثنا يوحنا الرسول في وحشته التي اختتمت بها حياته قائلاً: «ومهما سألنا ننال منه لأننا نحفظ وصاياه... ان طلبنا شيئاً حسب مشيئته يسمع لنا. وان كنا نعلم انه مهما طلبنا يسمع لنا نعلم ان لنا الطلبات التي طلبناها منه»

ولنا في الصلوات المستجابة المدونة في الكتاب أدلة أكثر اقناعاً من المواعيد التي مرَّ بنا ذكرها. فابرهيم، ويعقوب، وموسى، وجدعون،

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

وداود، وايليا، واليشع، وآسا، ويهوشافاط، وحزقيَّا، واشعيا، ومنسَّى، ودانيال، وارميا، كلهم يشهدون بحياتهم وصلواتهم المستجابة لاقتدار الصلاة ظاهراً وباطناً، ونظرياً وفعلياً. والعهد الجديد يفيض بأدلة أوفر مؤيدة لحقيقة اقتدار الصلاة. فلما صرخ الرسل سمعهم الرب واستجابهم قوةٌ في أنفسهم. «فلما صلوا ــ يوم الخمسين ــ تزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه «وامتلأ الجميع من الروح القدس وكانوا يتكلمون بكلام الله بمجاهرة»

وكان الرسل على الدوام يستهلّون أعمالهم العادية بالصلاة لله. وقد أثمرت صلواتهم المتحدة فأوجدت تغييراً اعجازياً في أنفسهم وفي العالم المحيط بهم بواسطة معمودية الروح القدس

هذه هي القوة المزدوجة الملازمة للصلاة. فهي ذات قوة فعالة في نفس المصلي وذات قوة مؤثرة في من يصلي لأجلهم

فالصلاة، قبل كل شيء، هي نسيم صافٍ عليل يشفي علل النفس ويداوي سقامها. وإذ نفتح نوافذها تجاه أُورشليم نتنسَّم نسيم السماء الشافي. حسناً قال أحدهم: «الصلاة هي نسيم حياة المؤمن وهي الجوّ الطبيعي الذي فيه يعيش ويتنفس». والصلاة هي «ترويض تهذيبي للنفس يُساعد على قمعها وكبح جماحها». فالمجهود الذي يبذله المرء ليُشعر نفسه بحضرة الله، يروّض أعصاب النفس ويقوِّي عضلاتها. فالصلاة هي في ذاتها نموٌّ في النعمة. والانتظار في محضر مليكنا الأعلى يطبع النفس على الولاء والوفاء لسيدها الأعلى. فما من تربة تنمو فيها ثمار الروح وتكثر مثل التربة المحيطة بعرش

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

النعمة. هناك ينمو هذا العنقود وينضج، حتى الكمال: «المحبة. الفرح. السلام. طول الاناة. اللطف. الصلاح. الايمان. الوداعة. التعفف»

والصلاة تنشط العقل، وتصهر العواطف، وتقوي الإرادة وتنعشها.

فالصلاة المستمرة المثابرة ــ كما يقول جيمس هيستنجز ــ توطّد عزيمة المتراخي، وتنهض همة الخامل، وتدخل الهدوء والسلام على النفس القلقة المضطربة، وتبث روح الغيرية في قلب الإنسان الأناني. فالصلاة تغيّرنا وتبعث فينا شعوراً حساساً، واحساساً دقيقاً من جهة الخطية. فمتى كنا قريبين من الله في المسيح فانه يسكب علينا من روحه فيرذل كبرياءنا، ويكبح جماح ارادتنا الجامحة العنيدة لأن الصلاة في جوهرها هي التسليم لله. «لتكن لا إرادتي بل إرادتك». ولقد أجاد أحدهم إذ عبّر عن هذه الفكرة باستعارة طريفة فقال: «ان قوة الجذب في صلاتنا قد لا تزحزح العرش الأبديّ، لكنها تدني قارب حياتنا من صخر الدهور فتدخلنا إلى مرفأ الأمن والنجاة باخضاع ارادتنا لارادة الله»

وهنالك نتيجة أخرى للصلاة ــ هي السلام الداخلي. فكل الذين يرفعون احتياجاتهم إلى الله بالصلاة والدعاء، لا بد أن يختبروا سلام الله الذي يفوق كل عقل. وهذا السلام الداخلي يشع بأنواره من أعماق النفس فيسطع على الآخرين المحيطين بها. فمع ان وجه موسى كان يلمع وهو لا يعلم، إلا ان بني اسرائيل كانوا يعلمون ــ ولقد أجاد جيمس لين في وصف جمال وجه أحد المؤمنين إذ قال:

«الصلاة قادرة في الوقت المناسب على أن تقيم من الوجه الإنساني

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

مذبحاً مقدساً لذاته. فالأفكار النقية المختزنة في الفكر على توالي السنين كالأنغام الموسيقية الكامنة، سوف تجد لنفسها مخرجاً في التعبير فتنسجم معه رسوم الوجه وتصبح مؤتلفة مع ايقاع نغم الذهن والفؤاد»

هذا تفسير عصري لذلك القول الحكيم الذي سجله يونس الرسول منذ تسعة عشر قرناً إذ قال: «ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح»

ولو كانت فاعلية الصلاة قاصرة على النتائج الداخلية الباطنية، لتاقت أنفسنا للصلاة حباً بالشركة مع الله. لأن الشركة معه يجب أن تفوق كل عطية أو هبة نطلبها منه. ومع ذلك فالصلاة أكثر من هذا

وكلما أمعنَّا النظر في دراسة البشائر والرسائل تبين لنا أن المسيح وتلاميذه اعتبروا الصلاة وسيلة لغاية. وما اجابة الصلاة سوى برهان قبولها وحجة رضى الله عنها وعن المصلي. فالعهد الجديد واختبار المسيحيين يشهدان أن للصلاة قوة مؤثرة في ما هو خارج عن دائرة المصلي نفسه. لأننا لسنا عائشين في عالم منعزل ولا في كون مختوم، بل في امكاننا أن نكون على صلة وثيقة بأبينا السماوي الذي يعرف كل ما يحيط بنا، ويهتم بكل ما يهمنا وهو فوق ذلك يحبنا

تكلم الدكتور دوجلاس ماكنزي عن الصلاة كأداة فعالة في يد الله، فقال: «لا يمكننا أن نتصور حلاً معقولاً للاتفاق العظيم المؤيد بالأدلة القوية الكثيرة المنقطعة النظير الدالة على أن البشر يستطيعون أن يحيوا ويتحركوا ويوجدوا ولهم بالله صلة وثيقة ــ لسنا نجد حجة لكل هذا الاتفاق

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

سوى حجة الصلاة. هذه حجة لا تضارع في قوتها وفي عموميتها» ان سر الصلاة التشفعية لهو سر عظيم. لكن تاريخ الصلاة التشفعية يحسب أقوى حجة على اقتدار فعلها. فهو تاريخ حافل يمتد من صلاة ابرهيم لأجل سدوم إلى صلاة كل المؤمنين في الكنيسة الجامعة في وقتنا الحاضر

فكل الأرض التي نحن عليها مقيمون تربطها سلاسل من ذهب بقاعدة العرش الأعلى

وللصلاة قوة في دائرة الطبيعة. «صلى ايليا أن لا تمطر. فلم تمطر على الأرض ثلاث سنين وستة أشهر. ثم صلى ثانية أن تمطر فاعطت السماء مطرها وجادت الأرض بثمرها» (يعقوب ٥: ١٧ و١٨) وقد جاء في ترجمة حياة اللورد لورنس انه عند ما اعترض احدهم على اقتدار الصلاة على منع المطر أو انزاله بحجة أن الصلاة تعجز عن احداث تغيير في نظام الطبيعة اجابه ذلك السياسي الهندي المسيحي العظيم قائلاً: «يكفيني أنا ان الله أوصانا بأن نصلي ووعدنا أنه يستجيب صلاتنا»

وللصلاة قوة في دائرة النعمة. فعند ما يوصينا الله بأن نصلي بعضنا لأجل بعض، ولا يطلب منا ذلك عبثاً لكنه يهبنا هذا الحق كامتياز عظيم وقوة فعالة دافعة لنا. فالمسيح صلى لأجل بطرس. وبولس صلى لأجل أبنائه في الايمان وشركائه في الخدمة ذاكراً كلاً منهم باسمه الخاص. وكل انتعاش ديني كان وليد الصلاة. وما على المرء الا أن يقرأ ترجمة حياة جون وسلي وتشارلس اسبرجون ودويت مودي وسائر المبشرين العظام حتى يتحقق أن السر في ربحهم النفوس للمسيح يُعزى إلى شركتهم الفعالة مع الله

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

للصلاة قدرة على الاتيان بأعمال ممتازة في دائرة العناية، ولقد كانت حياة جورج مولر مثالاً فذاً لاقتدار الصلاة على تداخل الله الخاص في دائرة العناية ليدبر حاجات ابنائه الذين رفعهم إليه جورج مولر في الصلاة. فإما ان تكون قصة جورج مولر من وضع خيال البشر الزائف أو انها حجة دامغة على اقتدار الصلاة. فقد استطاع ذلك القديس العظيم أن يجعل الله شريكاً معه في إدارة تلك الملاجئ العامرة فدبر الله كل حاجاته وحاجات الذين عُني بأمرهم في مدينة برستول بطريقة اعجازية فائقة لا يتطرق إليها الشك من إحدى نواحيها

وكذاك قصة حياة هدسون تيلر وارسالية الصين الوسطى فهما خير دليل متواتر على استجابة الله للصلاة. فقد ظلت تلك المرسلية مدة سبعين عاماً وسيل التبرعات التطوعية ينحدر عليها بغير انقطاع حتى بلغ ٥.١٠٣.٧٠١ جنيهاً. «فكوار الدقيق لم يفرغ وكوز الزيت لم ينقص». وفي يومنا الحاضر تضم هذه المرسلية جماً غفيراً من العمال يزيد عن ألف مبشر يخدمون في أربعة آلاف معبد

ولقد حدثتنا جين ستودارت عن مكان الصلاة السرية في حياة الكنيسة المسيحية على ممر الأجيال. فاختبرتنا عن الكنيسة الشهيدة في ايام الامبراطورية الرومانية الوثنية القديمة وكيف أن الصلوات كانت ترفع إلى الله من المستشهدين وقت استشهادهم هي سرادب الاحياء أو مجازر الموتى فكانوا يتلقون عنها سريع الجواب. وعرفتنا عن الآباء الأولين، اغناطيوس ويوليكاريوس، واكلمندوس. وعن صلاة مونيخا الصابرة الظافرة لأجل

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

ابنها اغسطينوس. وعن سان برنار كليرفو، وسان تريز فكلاهما كان جباراً مقتدراً في الصلاة. وعن سان لويز وسان فرنسيس ودانتي في العصور المظلمة. وعن صلاة سان باترك في منفاه واسفاره ومخاطره وكيف ان الصلاة انقذته من كل خطر وحفظته من كل ضر. وعن صلوات المصلحين لوثر وزونجلي وكالفن، وجون نوكس ــ وكلهم جبابرة بأس في الصلاة فمتى اطلع الإنسان على صفحات هذه التواريخ المجيدة اضطرمت نار الايمان في قلبه واشتغلت أنوار اليقين والرجاء في نفسه وذكر كلمات لوثر:

«ليس في استطاعة احد أن يثق بقوة الصلاة ويتيقن من شدة اقتدارها إلا إذا مارسها عملياً في حياته. انه لامر جلل أن تشعر النفس بحاجتها الملحة ثم تحاول أن تعالجها في الصلاة. هذا الأمر أعرفه أنا جيد المعرفة في حياتي فكثيراً ما صليت وجاءني الجواب بوفرة فاقت حدود سؤلي وانتظاري. ومع أن الرب قد أجل الاجابة إلى حين الا انه في وقته قد أسرع بالجواب

«ما من تنهدة أو عاطفة أو حنو
أو استغاثة أو استعطاف أو استرحام
إلا وقد بلغت عرش السماء
ووجدت لها صدى بين موسيقى الملائكة

لا بد لكل صلاة من اجابة ما بطريقة ما، وعلى صورة ما. فكل دموعنا محفوظة في زق عند الله. هذا صبر الصلاة التي يقال عنها انها غير مستجابة بل هذا هو اقتدارها وظفرها

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الفصل السادس

عوائق في سبيل الصلاة

أيّ قديس لم تمرّ به أوقات في ساعة اختلائه بالله، لم يجاهد فيها ضد الفتور والجمود، ويصارع ضد أفكاره الجامحة وارادته العنيدة؟! ومَن من المؤمنين لم تخامره تصوُّرات وشكوك في العالم الروحي الغير المنظور ومع ذلك رفع إلى السماء يدي التوسُّل والصلاة مرتقياً بروحه إلى محضر الله؟!

«كم رأيت «الجبار» وأنا في بلاد العرب
ولكن بعين حائرة حتى غاب وراء الأفق
وأنا أستمع لزئير الأسد
وأُصغي لهمس الوادي الجبار
كم رفعت يديَّ إلى السماء طالباً طلبة
وظللت رافعاً اياهما طوال الليل
وقلبي يفيض بالأماني
لكني لم أنل من الصلاة إلا الصلاة نفسها»

ان العوائق التي تقف حائلاً في سبيل الصلاة كثيرة ومتنوعة. فعدوّ نفوسنا الأعظم يعلم ان الصلاة هي الميدان الذي فيه تكلل هامة المؤمن باكليل الظفر والنصر. فهو يبذل كل الجهد لاقامة كل عائق أمامه في هذا السبيل.

حسناً قال أحد القديسين «ان الشيطان يرتعب كلما رأى أضعف المؤمنين

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

جاثياً على ركبتيه»، لكنه قول لا ينطبق على كل الظروف والأحوال. وفي اعتقادنا أن يوحنا بنيان كان أبعد منه بصراً وأحدّ منه بصيرة حين صوّر المسيحي السائح في وادي الاتضاع، وقلعة الشكوك، محاطاً بأعداء يعيقون صلاته ويوسوسون في أذنيه كلما همَّ بالمسير في وادي الظلمات

ويمكننا أن نقسم عوائق الصلاة إلى قسمين ــ عوائق خارجية، وعوائق داخلية. الأولى منبثة في الظروف الخارجية المحيطة بالإنسان. والثانية رابضة في مخادع نفس الإنسان

من المسلَّم به أنه يوجد كثيرون من الناس لا يرعون حُرمةً لزمان ولا يحتفظون بقدسيَّةٍ لمكان. فسواءً أكانوا جالسين في وادي الظلمات أم محمولين في عاصفة الحياة، يخصصون وقتاً للتأمل والصلاة. من الهيّن عليهم أن يرفعوا نظرهم إلى الله «سواء أكانوا مظللين بقبة الفضاء أم بقباب كاتدرائية كبرى تخلّل جدرانها الصور الفنية البديعة وتتخلّل أجواءها الموسيقى الملائكية وتنفذ من نوافذها أشعة الشمس النورانية»

لكن من يقرأ عبارات لويس أثرماير التي وصف بها مرارة نفس كاليبان وهو يقاسي الأمرين في منجم من الفحم، تراكمت فيه أوحال الأمطار وعبثت به الظلمات، يستطيع أن يدرك مقدار العوائق التي ترمينا بها الظروف المحيطة بنا ــ الظروف المريرة التي يكون من الصعب على الإنسان المغمور بها أن يصلي. ولقد أحس أيوب بمرارة هذه الظروف عند ما فقد كل ماله وآله وخسر صداقة معارفه وخلاَّنه وأضحى جسمه فريسة الأمراض والآلام، فقال شاكياً باكياً:

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

«ها اني أصرخ ظلماً فلا استجاب. أدعو وليس حكم. قد حوَّط طريق فلا أعبر وعلى سبُلي جعل ظلاماً. أزال عني كرامتي ونزع تاج رأسي... قد أبعد عني أخوتي ومعارفي زاغوا عني. أقاربي قد خذلوني والذين عرفوني نسوني» (أيوب ١٩: ٧ ــ ١٤)

لكنه قبيل ختام هذا الاصحاح عينه يقول واثقاً:

«أما أنا فقد علمت أن وليىّ حيّ والآخر على الأرض يقوم... الذي أراه أنا لنفسي وعيناي تنظران وليس آخر» (أيوب ١٩: ٢٥ و٢٧)

وارميا حين كان مثقلاً بآلام صهيون المسبيَّة وجَد الصلاة أمراً عسيراً فقال نائحاً: «صار السيد كعدو. ابتلع اسرائيل. ابتلع كل قصوره. أهلك حصونه وأكثر في بنت يهوذا النوح والحزن... كره السيد مذبحه. رذل مقدسه. حصر في يد العدو أسوار قصورها». إلى أن قال: «لنرفع قلوبنا وأيدينا إلى الله في السموات. نحن أذنبنا وعصينا. أنت لم تغفر. التحفتَ بالغضب وطردتنا. قتلتَ ولم تشفق. التحفتَ بالسحاب حتى لا تنفذ الصلاة» (مراثي ٢: ٥ و٧ و٣: ٤٢ ــ ٤٤). لكن ارميا وجد في النهاية منفذاً للثقة بالله والاعتماد على أمانته التي لا يعتريها ولا ظل دوران. وكذلك يمكننا نحن أن ننتصر بالصلاة على الرياح المعاكسة لنا. لأن في أحلك ساعات الظلام يشرق الرب علينا بنوره ويضيء بوجهه الوضاح. فهو نورنا وهو خلاصنا

وهنالك عائق خارجي آخر هو وليد العوامل التي تقطع علينا سكوننا وسلامنا. فعند ما ننصرف إلى ساعة اختلائنا بالله تهجم علينا ضوضاء الشارع

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

وضجيج المارة فتقطع علينا فرصة الهدوء التي ننوي أن نقضيها في محضر الله. وعند ما نلج باب خلوتنا ــ مهما يكن نوعها ــ نسمع دقات التليفون المتواصلة والملحَّة. ويُزعجنا ضجيج راديو الجيران، وحركات الأطفال، ودقات جرس الباب الخارجي، كأن كل هذه العوامل متألبة على ميعاد اختلائنا بالله. فكيف نطيق عليها صبراً. بل كيف نتخذ منها خير معوان لنا على الصلاة. فنحول أحجار عثرتها إلى أحجار نبني بها سُلَّم شركتنا مع الله؟

لنا في المسيح خير مثال في هذا السبيل. وكل من درس الإنجيل تبين له أن المسيح خلق من كل عامل مزعج ومعطل خير فرصة لإظهار قوته الشافية وكلماته المعزية. فإذا كان السيد قد سلك هذا السبيل، أفلا يجدر بالعبد أن يحذو حذو سيده، ويقتفي أثره؟

على أن كل العوائق والمعطلات الخارجية التي تقف حائلاً في سبيل الصلاة، هي أقلّ خطراً وأضعف أثراً من العوائق الداخلية التي تقوم في أعماق قلب الإنسان، فتجعل الصلاة ضرباً من المحال. فعدم الايمان، والأفكار الشاردة، وانشغال البال، والكبرياء، والأنانية، والانشغال بالرسميات عن الروحيات، والانصراف بالعرض عن الغرض، والخمول، والخطية الرابضة في الفؤاد، والروح الحاقدة ــ كل هذه عقبات كبرى وعوائق عظمى تقف حائلاً في سبيل صلواتنا السرية وصلاتنا العائلية

«يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موجود وانه يجازي الذين يطلبونه». فلن يقوى أحد على أن يصلي بحرارة في جوّ مفعم بالشكوك. ماذا يتبقى من رصيد ايماننا إذا حذفنا منه ايماننا بالاله الحيّ الضابط الكون، وثقتنا

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

بيسوع المسيح ابنه الوحيد الذي صلب لأجل خطايانا، وأُقيم من الأموات وصعد إلى السماء وهو الآن يحيا لأجلنا. وبقوة الروح القدس، وسلطان كلمة الله الموحى بها؟ ان الشك في أحد هذه الأركان أو في بعضها يقتل عصب الصلاة. لأن هذه الأركان هي التراث المقدس الذي يشترك فيه جميع المؤمنين سواء بسواء. وعلى هذه الأركان يقوم هيكل الصلاة المسيحية الحقة. فإذا بذرنا في هذا التراث المجيد وبعثرنا فيه ذات اليمين وذات اليسار، أو إذا استبدلناه بالفلسفة الكاذبة أو استعضنا عنه بالذهب الذاهب، فلا شك أن صلاتنا تموت في مهدها

ان عدم الايمان هو عدو الصلاة اللَّدود. فمسيحية بلا مسيح، أو مسيحية مبتورة ممسوخة قائمة على مبادئ أدبية جذابة وقوانين سفسطية خلابة، لا يمكن أن تجد تربة تنمو فيها بذرة الصلاة وتترعرع وتثمر. ولكن الصلاة في مقدورها أن تتغلب على الشكوك إذا ثابرنا عليها. حسناً قال سر توماس براون في أحد كتبه: «لقد صارعت الشكوك وصرعتُها لا بوقفتي العسكرية بل بركبتي المنحنية»

وانشغال البال أو تشتت الفكر هو عائق آخر للصلاة. متى كنا على هذه الحال أمسينا عاجزين عن تركيز عقولنا في التفكير بالعالم الأبدي، فتحكّم المادة فينا ويضيّق الأفق أمام نظرنا، فلا نقوى على تثبيت نظرنا في الأعالي. نحاول أن نتحدث مع الله، وإذا بنا نتخاطب مع العالم المادي المنظور. فمَن منا لم يشعر وهو على هذه الحال بشدة هذه العوامل التي تقطع عليه فرصة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الاختلاء بالله. بل مَن منا لم يشاطر الزابوري قوله: «كلَّت عيناي من التطلَّع إلى فوق». سيما عند ما يكون الروح نشيطاً والجسد ضعيفاً؟!

ان لحظة يقضيها الإنسان أمام الله في الانتباه وجمع قواه، يفضلَّها الله على ساعات نقضيها في حضرته والأفكار مشتتة وقوى النفس مبعثرة. بامكاننا أن نتغلب على الفتور والجمود في الصلاة وأن ننتصر على الجانب الصوري والطقسي منها متى ذكرنا المسيح وتعلّمنا من رسله. فمتى كنا محبين لله أصبحنا منتبهين وواعين. فالقلب الخاضع لله لا يمكن أن يكون غافلاً أو فاتر الهمة. عند ما نتفكر في الله تضطرم نار التعبُّد في قلوبنا، ويحلو لنا الحديث معه بقلوب مفعمة حباً وقداسة. فيكون الفم خير مترجم عما في الفؤاد

وهنالك عائق آخر للصلاة هو الكبرياء والأنانية. قديماً صلى الفريسي وهو متحصن بكبريائه وأنانيته فكانت صلاته مكرهة لدى الله. ان الشرط الجوهري الأساسي للشركة الخالصة الصادقة مع فادينا وخالقنا هو وداعة القلب وتواضعه. فالقلب المنكسر والروح المنسحق لهما قيمة كريمة وثمينة في نظر الله. وتقديم حاجات الآخرين على حاجاتنا لهو خير مران روحي عملي في مدرسة الصلاة. فكم من أناس شعروا باقترابهم من الله بمجرد انشغالهم بمصالح الآخرين

منذ بضع سنوات كتب أحد الفنانين الايطاليين كتاباً عن سيرة يسوع. وقد كان قبل كتابتها ملحداً. فاستقبله جمهور القراء استقبالاً حماسياً رائعاً. ولما سئل مؤلفه جيوفاني بابيني عن سبب تحول فكره عن العالميات إلى شخص المسيح المجيد قال لقد تمَّ ذلك وهو مشتغل بتدبير حاجات أولاده. فمهما يكن اهتمامنا

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

بصوالحنا عظيماً إلا ان اهتمامنا بمصالح أولادنا أعظم. لأننا نبغى لهم أفضل ما نبغيه لأنفسنا، بل أوفر. فالمحبة الصادقة تسلحنا بنية حماية صغارنا من كل شر وضر. مراراً يكون الاب بعيداً عن المسيح لكنه يشعر بشيء من الغبطة عند ما يرى أولاده يقبلون إلى شخص المسيح. فلو فكر في أمرهم جدياً لاضطر أن يصلي لأجلهم ومتى أراد أن يصلي لأجلهم استُدرج في النهاية إلى أن يصلي معهم. وقد يتفق أن تكرارنا الصلوات التي تعلمناها منذ نعومة اظفارنا يوقظ فينا تذكارات مجيدة تذيب قلوبنا الجامدة وتهذيبها، وتقربنا من قلب الله

إذا ركزنا صلاتنا ضمن دائرة حاجاتنا الذاتية أضحت صلاتنا محصورة في دائرة ضيقة، ومطبوعة بطابع الأنانية والجمود والجحود. ولكننا نستطيع أن نركض في سبيل وصايا الله متى رحب الرب قلوبنا. ان وطن المسيحي الحقيقي هو السماء. فهو إذاً سفير العلي على هذه الأرض. فمن واجبه بل من حقه أن يرفع هذا العالم إلى الله على أجنحة الصلاة

فليذكر كل مؤمن وهو قادم على الصلاة

انه انما يدنو من حضرة المليك الأعظم

فليطلب منه طلبات عظمى تليق بمقامه الكريم

ومهما بالغنا في طلباتنا

لن يمكنا أن نتخطى الحد الذي رسمه لنا الله في طلباتنا

متى أمعنا النظر في الصلاة الربانية وتأملنا الصلوات التي رفعها فادينا إلى الآب في أيام جسده على الأرض، أمكننا أن نرى فيها عمقاً واتساعاً

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

لا حدَّ لهما: «لست أسأل من أجل هؤلاء فقط بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم». فمَن من البشر يستطيع أن يحصر في فكره كل الذين تضمهم هذه الصلاة في عرضها واتساعها؟!

حسناً قال الدكتور هيستنجز:

«الأنانية في الصلاة هي في الغالب نقطة ضعف عند المسيحيين المتقدمين في الاختبارات الروحية ــ أولئك الذين أضحت الصلاة عندهم أمراً مألوفاً. وهذا الخطر وان كان يحيق بنوع خاص بأصحاب الأمزجة الحادة، الا انه يحدق بالأكثرين، من كل طبع ومزاج. لذلك وجب علينا أن نكون على اتصال روحيّ وثيق بالله حتى يمكننا أن نطلب الأشياء التي لها صلة بمجد الله وكرامة اسمه تعالى. ويجب أن نكون على علم دقيق بحوادث العناية حتى يمكننا أن نجد موضوعات وفيرة للشكر. كلما مر بنا يوم من الأيام، وجب أن نكون على رفقة ودية برفاقنا من البشر كي نجد من حاجاتهم موضوعاً لطلباتنا.»

كلما ضاق معرفتنا بحاجات البشر وآلامهم ضاق نطاق تضرعاتنا وكلما اتسعت معرفتنا بما يحيط بأخوتنا اتسعت دائرة تشفعاتنا. فبطرس الرسول صعد إلى السطح ليصلي ودائرة فكره محصورة في اليهود واليهودية. لكنه بعد تلك الرؤيا المثلثة المجيدة التي أعلنت له، رحب دائرة صلاته فضمت العالم بأسره

وهل ننسى ان من بين العوائق التي تقف حائلاً في سبيل الصلاة، تلك الروح الجاحدة الجامدة الحاقدة، والخطايا الكامنة في الصدور؟ حسناً قال اشعياء النبي في وصف صلاة الذين لا يخلصون النية لله في الصلاة:

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

«فحين تبسطون ايديكم استر عينيَّ عنكم. وان كثرتم الصلاة لا أسمع. أيديكم ملآنة دماً. اغتسلوا. تنقوا. اعزلوا شر أفعالكم من أمام عينيَّ. كفوا عن الشر. تعلموا فعل الخير. اطلبوا الحق. انصفوا المظلوم. اقضوا لليتيم. حاموا عن الأرملة»

(اشعياء ١: ١٥ ــ ١٧)

ثم عاد يقول عند ختام سفره:

«ها ان يد الرب لم تقصر عن ان تخلص. ولم تثقل اذنه عن أن تسمع بل آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين الهكم. وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع»

(أشعياء ٥٩: و١ ــ ٢)

كيف نتوقع ان ننال بركة عند مذبح الصلاة ما لم نكن متصالحين مع اخوتنا؟ بل كيف نجرؤ على أن نطلب من الله أن «يغفر لنا ذنوبنا» ما لم نغفر نحن أيضاً لمن يذنبون إلينا؟ وكم من مرة تكون صلاتنا فاترة لأننا مع معرفتنا بخطايانا لم نعترف بها أمام الله. بل كم من مرة طلبنا الغفران من الله من غير شعور بالخجل من خطايانا عند اعترافنا بها، ولا بالتعبد والشكران عند نوالنا الغفران!؟ فلا عجب والحالة هذه إذا كانت صلاتنا لأجل الآخرين قليلة وهزيلة؟ ان اصلاح صلاتنا يستلزم اصلاح طرقنا وتحسين علائقنا الحبية بالآخرين: «لأن من لا يحب أخاه الذي يبصره كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره»؟ (١ يوحنا ٤: ٢٠). ولقد أجاد جون دَن أحد الطهوريين الأقدمين حيث قال:

«ان الله يحسب خطية تجاهله أشنع من خطية مقاومته. فتجاهلنا اياه

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

يجرح قلبه أكثر من تعدينا على شريعته»

وهنالك عائق آخر يقف حائلاً في سبيل الصلاة ــ قد أشار إليه بطرس الرسول في رسالته الأولى في حديثه عن الواجبات الزوجية المتبادلة (١ بطرس ٣: ٧) فالبيت هو مهبط المحبة والولاء، ومنبت الشرف والكرامة والوفاء، بين الزوجة وزوجها. ومتى كان البيت كذلك، انتفت منه العوامل التي «تعيق الصلوات». وعند ما تتوفر المودة والعطف والشفقة والمجاملة في دائرة البيت، عندئذ يصبح المذبح العائلي مركز الجاذبية في الالفة البيتية المسيحية، ومتى انعدمت كل هذه الصفات النبيلة اضحت الصلاة مهزلة. فالصلاة هي المحك الحقيقي للاخلاص ــ بشرط أن تكون حقيقية. قديماً كتب الأسقف لانسيلوت اندروز مقدمة لصلاة عائلية، تُتلى عند العشاء، قال:

اللهم. لقد هربنا منك وأنتَ تسأل عنا
واهملناك وانت بحبك قد غمرتنا
وضممنا اذاننا عن سماع صوتك، وأنت تستمع لنا وتكلمنا
وحوَّلنا وجوهنا عنك، وأنت تمد يدك الطهورة إلينا
ونسيناك حال كونك تحسن الينا
واحتقرنا تأديبك واصلاحك ايانا»

بمثل هذه الاعترافات يجب أن تنطق شفاهنا وتفيض قلوبنا. فيمكننا أن نذيب كل العوائق التي تقف حائلاً دون صلاتنا، فتتم لنا مواعيد الله العظمى، ونتحقق حضوره معنا متى طلبناه من كل قلوبنا، وكنا في طلبنا اياه مخلصين

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الفصل السابع

صلاة الغير المسيحيين والمرسليات

عرفنا في فصل سابق ان الصلاة ركن عامٌّ مشترك في كل دين. ومهما أجهدنا أنفسنا، لا يمكننا أن نُلمّ بكل البراهين الدالة على قِدَم وعمومية هذا العنصر السرّي الخفيّ في صلوات الامم الغير المسيحية. ولقد خصص فريدريخ هيلر مئة صفحة في موسوعة له عن صلوات وعادات القبائل الهمجية التي تقطن افريقيا واستراليا وامريكا فحدثنا عن:

«الامم التي في جهلها الظاهر والمستتر

تسجد للشجر وتنحني أمام الحجر»

لكنها في الوقت نفسه تشعر بقُوَى سامية وتحس بروح علويّ، إليه توجّه صلواتها. وكل يوم يمرّ بنا يقدم لنا أدلة واضحة تقرر هذه الحقيقة وتؤيدها. فصلاة الأمم المتبدية تتمّ عن تعطّش النفس البشرية وتشهد للنعمة الإلهية العامة التي تصوغ قلوب جميع البشر سواء بسواء

الصلاة هي أقدم تعبير وأوضحه عن رعب الإنسان ومخاوفه، وعن شعوره الدائم بأفضال الله ومراحمه عليه. فالإنسان الذي يصلي ــ مهما يكن نصيبه من البداوة ــ إنما هو متصل بعالمين: ــ عالم الغيب، وعالم الشهادة. لكن الإنسان العديم الصلاة يحبس نفسه في عالم واحد ــ هو عالم المادة.

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

يقول بعض الهنود في صلواتهم: «يا أرواح الموتى. ارحمينا!». ان هذه الصلاة هي رغم قصرها تنمّ عن عقيدتين مسيحيتين أساسيتين: أولاهما الاعتقاد بحياةٍ بعد الموت. والثانية الاعتراف بحاجة الإنسان إلى رحمة علوية تمكنه من مواجهة صعاب الحياة. يحدثنا التاريخ عن بعض الهنود انهم عندما حاولوا عبور بركة رئيسية في بلادهم، أعدوا زوارقهم ورفعوا إلى «الروح العلويّ» صلاة حارة، قالوا فيها:

«يا من أبدعت هذه البرْكة وخلقتنا نحن أولادك
اخضع هياج هذه المياه، وأجزنا عليها بسلام»

فمن هذه الصلاة نستطيع أن نستخلص شيئاً عن ايمانهم بأبوَّة الاله الخالق وقدرته الفائقة المسيطرة على الطبيعة

من المسلَّم به ان صلوات الامم المتبدية هي في الغالب مقصورة على طلب النجاح الزمني، والنصرة في الحرب والتمتع ببركات هذه الحياة الدنيا. لكننا نجدهم في بعض صلواتهم يرتقون فوق الماديات إلى الروحيات ويسمون من العرضيات إلى الجوهريات. فإذا كانت الصلاة الحقة هي التسامي بالنفس إلى حضرة الله، فان في صلوات بعض هذه الأمم ما يشجع المرسليات على أن يتخذوا منها أداة للاتصال بهم والتفاهم معهم ــ واتخاذها أساساً لابلاغهم الرسالة المسيحية. حدثنا القس ألكساندر لبروي عن سكان إحدى الغابات العظمى في افريقيا قال: انهم يبتهلون إلى الروح العليّ أن يحفظ حياة كل وليد جديد، وينعم عليهم بحصاد سخيٍّ وفير، ويشفي مرضاهم، ويجود عليهم بالمطر الغزير، ويهيئ لهم سلاماً يقيهم كل شرّ مستطير. إلى أن قال:

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

«عادةً تُرفع الصلاة عندهم في شكل دعاء، أو استنزال لعنة، أو نقمة، أو رُقية. وفقاً للظروف والملابسات. وهم يتلون هذه الصلوات أو يترنمون بها ويوجهونها إما إلى أرواح الموتى، أو إلى الاله العليّ».

ثم نقل عن أحد الكتاب طلبتين من طلباتهم ــ أولاهما ترفع لأجل إنسان مريض:

«ربنا وسيدنا. نطلب إليك أن تشفي هذا المريض من علته. ونتوسل إليك أن تحرره وتداويه وتشفيه». والثانية عن استنزال المطر:

«اللهم جُد علينا بالمطر. لأننا في بؤس وضيق ــ إننا نتعب ونكد ونحن ذريتك. جُد علينا بغيوم محملة أمطاراً ليجد الشعب طعاماً. نتوسل إليك أن تستجيبنا يا إلهنا وأبانا»

يقيناً ان الله الذي «يُعطي طعاماً لفراخ الغربان التي تصرخ» (مزمور ١٤٧: ٩)، لا يمكن أن يصمَّ أذنيه عن صرخات أبنائه الذين ينادونه ويناجونه في الظلام. «الغارس الاذن ألا يسمع؟ الصانع العين ألا يُبصر؟ المؤدب الامم ألا يبكت؟ المعلم الإنسان معرفة الرب يعرف أفكار الإنسان» كل الذين أتيحت لهم فرصة عاشروا فيها الأمم الغير المسيحية: كالهنود والبوذيِّين، والمسلمين واليهود ــ قد شعروا بأن ضمائرهم تبكتهم كما رأوا في غير المسيحيين حماسةً متأججةً نحو الغير المنظور، وجهاداً عنيفاً خالصاً في التماسهم وتلمُّسهم وجه الله، وقابلوا كل ذلك بما يرونه في المسيحيين من فتور وجمود وجحود. حقاً ان الله لا يبالي بالوجوه وهو يعرف طالبيه الحقيقيّين من كل قبيلة وأمة ولسان ويكافئهم حقاً على طلبهم اياه

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

بكل قلوبهم

متى أراد الباحث أن يتبين القيمة الفعلية لمثل هذه الصلوات التي تُرفع إلى الله من أمم تتلمس وجه الله في ظلامها، تعترضه مثل هذه الأسئلة: ما هي القيمة الخفيّة الباطنية لمثل هذه الصلوات؟ وما هي قيمتها الظاهرة الخارجية؟ وما هو مدى تأثيرها في العوامل الخارجة عنها؟ وهل يسمع الله مثل هذه الصلوات؟ أم ان خط تليفونهم لا يتصل بالسنترال الأعلى؟ وهل لها من جواب؟

ان الكتاب المقدس يريق نوراً على هذه الأسئلة فنستطيع أن نحظى منه بجواب. فقد سجل الكتاب صلوات كثيرين ممن كانوا خارج نطاق عهد اسرائيل. فقابين ــ قاتل أخيه ــ رفع في مرارته صلاة إلى الله طالباً أن يقيه شر من يحاولون أن يقتصوا منه على فعلته الشنعاء. فأجابه الله إلى ما طلب (تكوين ٤: ١٣ ــ ١٧). لأن رحمته منذ الأزل وإلى الأبد. وهاجر صلّت طالبة ماء لابنها الذي كاد يقضي من شدة العطش. والإله الصالح تعطف عليها راحماً واستجاب دعاءها واستحيا ابنها (تكوين ٢١: ١٥ ــ ٢٠). والقابلتان المصريتان مع اننا لم نقرأ عنهما انهما صليتا، الا أن الله كافأ عطفهما على بني إسرائيل. ويثرون حمو موسى لم يكن ضمن رعوية إسرائيل، لكنه عرف الله وباركه قائلاً: «مبارك الرب الذي أنقذكم من أيدي المصريين ومن يد فرعون الذي أنقذ الشعب من تحت أيدي المصريِّين. الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة» (خروج ١٨: ١٠ و١١). وراعوث المواييَّة، بالرغم من كونها وثنيَّة الأصل وعلى رغم زواجها المشوب بالاختلاط الأممي،

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

تقدَّم لنا خير مثال للولاء والوفاء والعفاف، والأمومة الطاهرة، والايمان الوطيد بالله. فلا شك انها كانت متعوِّدة على الصلاة قبل أن تفوه باقرارها الجليل، الذي قالت فيه لحماتها: «حيثما ذهبتِ أذهب وحيثما بتِّ أبيتُ. شعبك شعبي والهك الهي» (راعوث ١: ١٦). ومن هذه السيدة وُلد عوبيد والد يسى أبي داود. فيا ترى هل كان سليمان متفكراً بها حينما صلى قائلاً:

«وكذلك الأجنبيّ الذي ليس من شعبك اسرائيل هو، وجاء من أرضٍ بعيدة من أجل اسمك. لأنهم يسمعون باسمك العظيم وبيدك القوية وذراعك الممدودة. فمتى جاء وصلى في هذا البيت فاسمع أنت من السماء مكان سكناك وافعل حسب كل ما يدعو به إليك الأجنبي لكي يعلم كل شعوب الأرض اسمك فيخافوك كشعبك اسرائيل. ولكي يعلموا انه دعي باسمك على هذا البيت الذي بنيت» (١ ملوك ٨: ٤١ ــ ٤٣).

وراحاب الزانية قاطنة أريحا، ونعمان السرياني، وكورش الوثني الفارسي ــ كل هؤلاء نالوا من الله جواباً على أشواق قلوبهم العميقة ونالوا مراحم وهم خارج نطاق الشعب الإسرائيلي. ولسنا نعرف شخصاً غير المسيح قد نال الألقاب والمواعيد والبركات التي وُعد بها كورش في نبوات أشعياء

وفي قصة يونان المختصرة نعثر على ست صلوات منها صلاة الملاّحين إلى آلهتهم. وعند ما ألقوا القرعة ليتبيّنوا إرادتها، ولما صلوا إلى يهوه اله اسرائيل، استجيبت صلاتهم التي رفعوها في العاصفة، وقُبلت عهودهم ومواثيقهم. وكذلك صلاة يونان التي أظهر فيها ندامته من أعماق البحر، قد سُمِعَت واستجيبت. وشكواه التي رفعها إلى الله طالباً أن يعفى من الموت في ذلك الحين قد قبلت وأجيبت

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

وفي العهد الجديد نعثر على صلوات رُفعت من أناس لم يكونوا ضمن رعوية إسرائيل ــ أمثال المجوس ــ والمرأة الكنعانية، وكرنيليوس، كل ذلك يذكرنا بأن:

لمراحم الله اتساعاً
يفوق سعة البحر
لأن محبة الله أرحب
من سعة عقل البشر
وقلب القدير
يفيض رحمة وحناناً

وضع دكتور روبرت هيوم كتاباً سماه: «خزانة الديانات الحية» ضمنه صلوا مقتطفة من الكتب المقدسة التي تدين بها بعض القبائل السلالية. وفي باب الابتهال والتعبد أورد أمثلة جميلة للصلاة تشهد لواضع الكتاب وجامعة بدقة البحث وسعة الاطلاع وقوة المثابرة. ان ذلك الكتاب يشتمل على لآلئ درية ثمينة من صلوات البشر على مرّ الأجيال، تتوجها كلها تلك اللؤلؤة التي لا تقوم بثمن ــ أعني بها صلاة المسيح. وعند ما تقرأ هذه المختارات المعبرة عن أشواق القلب البشري، يرجع إلى ذاكرتنا ذلك القول الجليل: «يشبه ملكوت السموات إنساناً تاجراً يطلب لآلئ حسنة». وقبل تجسد الكلمة بألف سنة ويزيد رفع أحد «أشراف» الهنود صلاة قائلاً:

«من الوهمي اهدني إلى الحقيقي
ومن الظلام قدني إلى النور

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

ومن الموت سِرْ بي إلى الخلود»

ومن الغريب أن هذه الصلاة ما زالت مستعملة في الهند إلى وقتنا الحاضر. وفي إحدى ترنيمات «السخ» نجد هذه الصلاة المفرغة في قالب ترنيمة:

«أيها الإنسان! احتمِ في ذلك الرب الاله

الذي بنعمته يستر عيوبك

أيها الإنسان! مع كل تنهداتك، اذكر الاله العليّ

الذي بلطفه قد ميزك عن سواك

فاترك ما عداه وكن عابداً إياه»

ومن العجب أن نجد «كبيراً» ــ أحد زعماء «السخ» يسمو من منحدرات الوثنية إلى مرتفعات الايمان بالاله الواحد، فيقول في صلاته:

«يا بحر المراحم الخضمّ

أنر بصيرتي

كي أحبك يا إلهي

اللهم وعرفني انك قريبٌ منيّ

لاننا على مدى الايام نحن أولادك

وأنت اللهم سيدنا

أنت لنا أرحم من الأب وأحنّ من الأم»

وفي جيانة زرواستر نلتقي بصلوات جميلة تُرفع في التعبد والتمجيد والابتهال:

اني أتحدَّث عن ذاك الذي هو أعظم العظماء

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

ممجدا ذلك «الحق» الذي هو كثير المراحم على جميع الاحياء
أهورا مازدا الذي قد رُبيت على تمجيده وعبادته
فليعلّمني بحكمته ما هو حق
لا عيش للحق ما دام فيَّ قلب ينبض
فأنا له وأنا عبده، يا إلهي ما دمت حياً
فليت ربّ الحياة
يحقق حسب إرادته السامية بالفكر الصالح
المثل الأعلى الذي يريد أن يرفعنا إليه»

وكل سائح اتفق له ان زار الشرق الأدنى، يدوي في أذنيه «الأذان» الذي سمعه من المؤذّن من مأذنة الجامع، ويرتسم أمام مخيلته منظر جماهير المصلين الذين ينتظمون صفوفاً داخل الجوامع وخارجها ليؤدوا فريضة الصلاة لله. ولا شك ان صلوات المسلم الجهرية والسرية هي نقطة الاتصال التي يرتكز عليها المرسل في ابلاغ المسلم رسالة الخلاص المقدمة في الإنجيل. ان حياة المسلمين الدينية تتركز في الخمس مرات التي يصلّون فيها إلى الله. ويرى الناظر إلى تلك الجموع الزاخرة شدة الغيرة والتعبد لله. وهذا يُرى بكل وضوح على ملامحهم التي تنم عن شيء غير قليل من الاخلاص والهدوء. لأن المسلم المصلي يكون عادة منصباً بكلياته وجزئياته في صلاته. ومع ان عدداً غير قليل منهم تتمثل فيه الفريسية المتطرفة فيطيلون الصلاة لعلة ولذلك يكررون الكلام باطلاً ولكن لا ينكر أن بينهم جماعة يمثلون الروح التائبة التي ملأت قلب العشار الذي تاب وأناب وبكى واسترحم. فما هي

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

ملاحظتنا على مثل هذه الصلوات التي يرفعها غير المسيحيين؟

وهنا أرى المجال متسعاً أمامي أورد حادثة من اختباري الخاص:

ففي ذات صباحٍ ما، منذ بضعة أعوام، كنت مسافراً في إحدى البواخر على متن المحيط الهندي، وكنت وقتئذ أطالع كتاباً يتضمن بعض الصلوات الإسلامية، كان قد طبع في كولومبو باللغتين ــ العربية والتاملية. والصلوات المتضمنة فيه من صلوات الدراويش النقشبنديين فألفيتها نموذجاً للصلوات التي نسمعها في كل مكان على ألسنة الشعب. وها نحن أولاء نورد نموذجاً من هذه الصلوات الجميلة: «اللهم اني مُفلِسٌ حقاً. وها أنا أقف أمام باب مراحمك. حقاً أنا غارق في لُجٍ من الآثام. فاللهم اصفح لي من أجل اسمك العظيم. بالحقيقة أنا غريب ضالّ غاوٍ، ورقٌّ ذليل ليس لي ما أتقدم به إليك سوى اهمالي ومعاصي. ان خطاياي تفوق رمل البحر عدّاً. فاصفح لي واعفُ عني. امحُ معاصيَّ وخذ بيدي وتولاني بحكمتك وقدرتك. ان قلبي سقيم حقاً ولكنك قادر على شفائه. انني في بؤس حالي لا أقوى على اتيان أي عمل صالح. لقد كثرت آثامي، وثقلت معاصي لأن قدرتي على الطاعة مصابة بالشلل والعجز. فاللهم الهب قلبي بكلمة منك، كما الهبت قلب ابرهيم فكانت نارك السماوية برداً وسلاماً عليه.

هذه صلاة للصفح والغفران ما أجملها

وهنالك مثال آخر، نعني به فاتحة القرآن:

«بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الرحمن الرحيم
مالك يوم الدين
إياك نعبد وإياك نستعين
اهدنا السراط المستقيم
سراط الذين أنعمتَ عليهم
غير المغضوب عليهم
ولا الضالين
آمين»

(السورة الأولى في القرآن)

ولقد تأثر الدكتور كامبل مورجان لما اطلع على هذه الصلاة التي يرفعها إلى الله ملايين من البشر وقد ظلوا على هذا المنوال ثلاثة عشر قرناً. وتعبيراً عن شدّة تأثره كتب العبارة الآتية بحروف مفخمة وعلقها على واجهة قاعة الاجتماعات في كنيسة وستمنستر:

اللهم. يا من ينحني أمامك العالم الإسلامي متعبداً خاشعاً ضارعاً خمس مرات في اليوم ارحم اللهم ذلك الشعب واعلن لهم مسيحك المختار

والغزالي، ذلك العالم المُسلِم المتصوِّف، الملقَّب بـ «حجَّة الإسلام» المتوفِّى عام ١١١١ ميلادي، كتب الشيء الكثير عن الصلاة وسر الاختلاء

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

بالله ــ وهو بلا شك في مقدمة أعلام الفكر الإسلامي ــ وقد ازداد نفوذه وسحر تأثيره في القرن الماضي بنوع خاص. كان مفكراً عميقاً باطنياً وقد طلب الله بكل قلبه وكان له بعض الالمام بكلمات الإنجيل، إلا انه كرس حياته للدفاع عن الإسلام فلا غرو إذ خلع عليه التاريخ لقب «حجَّة الإسلام». ولقد ضرب بسهم في تعليمه عن الصلاة فوصفها بالقول: «الصلاة هي تقرُّب من الله وهي هبة نقدمها لملك الملوك... الصلاة الحقة تتألف من ستة عناصر: حضور القلب، وانتباه الذهن، وتمجيد الله، والخوف، والرجاء، والحياء»... «لا يكفي المصلي أن يوجه وجهه نحو القبلة، لأن القلب لا يتوجه حقاً إلى الله إلا باعتزاله كل شيء ليكون في محضر الله». وقد وضع الغزالي صلاة للغفران قال فيها: «اللهم اغفر ذنبي واعف عن جهلي وإفراطي فيما أتيت. فأنت أعلم مني بكل شيء. اللهم اغفر لي صغائري وزلاتي، وكل مقاصدي السيئة، وكل فعالي. اللهم اغفر لي ما اقترفت في ما مضى، وكل ما أنوي أن أرتكبه في المستقبل، وكل ما أنا مُصرٌّ عليه في أعماق نفسي. اغفر لي كل ما أبطنتُ وأظهرت وكل ما ظهر لديك مني وخفي عني، فأنت أدرى به مني. فأنت الأول والآخر وأنت على كل شيء قدير»، وهكذا كل تعاليم الغزالي عن الصلاة والتدرب على الشعور بحضرة الله يشبه على نوع ما، كتابات بعض المتصوفين من المسيحيين. وفي كتابه المسمى «البداية» قال:

«اعلم أن رفيقك الذي لا يبارحك في الدار وفي الخارج، في منامك وفي يقظتك، في مماتك وفي حياتك، انما هو ربك وسيدك، وخالقك وحافظك وكلما ذكرته وجدته عن جانبك. لأن الله نفسه قد قال: «أنا خليل اصغي

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

لكل من يذكرني». وكلما كان قلبك مثقلاً بالأحزان بسبب اهمالك أمر دينك، وجدت فيه الصديق الملازم لأنه سبحانه وتعالى قد قال: «أنا مع المنكسري القلوب في سبيلي». فلو عرفته كما وجب لاتخذته لك خير رفيق وهجرت كل شيء في سبيله»

هذه كلمات شريفة تنم عن حياة مشبعة بالتعبد الحقيقي

فمن المحال، والحال على هذا المنوال، ان نطَّلع على صلوات الغير المسيحيين الا ويتجلّى لنا ان هنالك نقطة تماس واتصال، منها تبلّغهم رسالة الانجيل. فالصلوات والمذابح المقامة «للاله المجهول» إنما هي تحريض للمرسلين مثلما كانت تحريضاً لبولس الرسول من قبل. وفي الواقع نحن مجرَّبون ان نتغاضى عن أشواق النفوس المتعطشة إلى الله من أراضٍ بعيدة

«فكم من نفوس في رحابة العالم الفسيح
تتوق إليك اللهم لترتمى في أحضانك
وكم من دموع بشرية مسكوبة عند قدميك
وقلوب إنسانية تشتاق إلى الراحة بين راحتيك
فالكل إليك متعطش كما يتعطش الزهر إلى القطر
وكما تحن الأعشاب الذابلة إلى وابل المطر
انهم يترجونك يا خالق السموات
محاولين أن يرتقوا إلى محضرك يا فادي الخطاة»

ويحتفظ لنا سجل التاريخ بصلاة رفعها اغسطينوس، وهي تسترعي منا كل التفات:

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

«أيها الاله الحقّ. أنت في كل مكان مستمع لصلوات كل الذين التجأوا إليك وأجبت سؤلهم. نعم قد أجبتهم جميعاً بصراحة ولو أن الكل لم يقووا على تبيانها. لأنهم لا يسمعون منك دائماً ما يلذ لهم سمعه. ان خادمك الأمين هو الذي يلذ له أن يسمع ما تقوله له وليس هو ذاك الذي يتطلع إليك لتسمعه على الدوام ما يلذ له سمعه»

والآن بعد أن تبيَّنَّا شيئاً عن صلوات الغير المسيحيّين، بقي علينا أن نشير إلى هذه الحقيقة الأساسيَّة: وهي أنه يوجد بون شاسع بين صلاة الغير المسيحيّ، وصلاة المؤمن الحقيقي. فصلاة المهاتما غاندي مثلاً تختلف كل الاختلاف عن صلاة أحقر هنديّ من الذين قبلوا المسيح مخلِّصاً ورباً. والفرق في النوع: ذلك ان صلاة المسيحي مرفوعة إلى الله باسم المسيح، وفق إرادة الله، وفي قوة الروح القدس، ولا يُتاح للإنسان أن يصلي على هذا المنوال الا متى كان له اتحاد وثيق ثابت بالمسيح

ولقد حرص لوقا الطبيب البشير على أن يلقي نوراً ساطعاً على حياة بولس بعد تجديده حالاً فقال عنه: «هوذا يصلي». فشاول الفريسي كان يهودياً متعبداً تقياً وقد صلى كثيراً سراً وجهراً. لكن بعد أن فني الطرسوسي شاول في بولس الرسول تغيَّرت صلاته كل التغير على أساس أول صلاة رفعها إلى الله بعد تجديده: «يا رب ماذا تريد مني أن أفعل» (أعمال ٩: ٦ و١١) فصلوات شاول كانت مطبوعة بطابع العهد القديم، وصلوات بولس كانت في اسم المسيح وباسمه

وفي خطاب المسيح الوداعي لتلاميذه، ألقى عليهم درساً غاية في الأهمية

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

عن الصلاة، فكان ذلك الدرس مسك الختام لتعاليمه القدسية الجليلة: «الحق الحق أقول لكم. ان كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم. إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً» (يوحنا ١٦: ٢٣ و٢٤). هذه مبادئ العهد الجديد الأساسية للصلاة. والمستفاد من تعاليم المسيح ورسله ان الصلاة باسمه تعني أن نعتمد على فدائه الذي صنعه لأجلنا وان نطلب الأشياء التي نتمناها، ونحن في روح المسيح متحدون اتحاداً حيوياً به

ان صلاة الغير المسيحيين هي على أكثر تقدير، في دار الهيكل. ولكن الذين نالوا حياة التبني وصاروا في عداد بني الله، إنما يتقدمون بثقة إلى قدس الأقداس، بدم المسيح، بذلك «الطريق الذي كرسه لنا حياً حديثاً بالحجاب أي جسده»

والاتحاد بالمسيح معناه تبادل المصلحة معه. هذا يرفع الصلاة إلى أرقى مستوى: «ان ثبتم فيَّ وثبت كلامي فيكم تطلبون ما تريدون فيكون لكم» (يوحنا ١٥: ٧). فكل تعريف عن الصلاة يصفها بأنها ممارسة عامة مشتركة بين جميع الأمم في كل دين، لا يؤدي الغرض أحسن أداء، ولا يحيط بأسمى معاني الصلاة المسيحية. لأنها تختلف في النوع عن كل صلاة أخرى. ولعلَّ واضعي «أصول الايمان» كانوا قريبين من الحقيقة بقولهم: «ان الصلاة هي رفع تقديم أشواقنا إلى الله عن الأشياء المرضية لإرادته في اسم المسيح مع اعترافنا بخطايانا وشكرنا له على مراحمه». فعند ما يصبح أولئك البعيدون عن الله قريبين منه في المسيح ويتقدمون إليه في الصلاة، عندئذاك ينالون روح التبني فيصرخون يا أبا الآب «يا سامع الصلاة إليك يجيء كل بشر»

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الفصل الثامن

الصلاة والمرسليات

منذ بدء عهد المرسليَّات في عليَّة أُورشليم، والصلاة هي سر القوة، والثبات، والنصرة. فتاريخ المرسليات هو تاريخ الصلاة المستجابة. ومنذ يوم الخمسين إلى الاجتماع التاريخي الذي انعقد في هيستاك في نيوانجلاند، ومنذ الأيام التي وطِئت فيها قدما روبرت مورسون أرض الصين إلى يوم استشهاد يوحنا وبني سام، والصلاة هي نبع القوَّة وسر النصرة الروحية

وكل المرسلين العظام الذين صارت أسماؤهم أعلاماً في سجلَّ الخدمة العامة، وطلائع في أعمال الخير كانوا قبل كل شيء رجالاً عظاماً في الصلاة. وبولس الرسول يُحسَب في طليعة رجال الصلاة كما يتبين من حياته ورسائله إذ كان في كل شيء وفي كل حال يبتدئ بالصلاة، ويستمر مصلياً، ويختتم بالصلاة. وسنرى فيما بعد انه كان يلجأ إلى الصلاة في كل الأزمات والملمات التي قابلته في الحياة. فالحافز الأول هبط إليه وهو جاثٍ على ركبتيه في أورشليم: «وحدث لي بعد ما رجعتُ إلى أورشليم وكنت أصلي في الهيكل اني حصَلتُ في غيبةٍ... فرأيته قائلاً لي أسرع واخرج عاجلاً من أورشليم... فقال لي اذهب فاني سأرسلك إلى الأمم بعيداً». وسمعان بطرس كان مصلياً عند ما رأى تلك الرؤيا التي أعلنت له محبة الله لجميع البشر على السواء. ويحدثنا التاريخ عن سانت باترك ان الصلاة كانت أقوى حافز له على رحلاته

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

التبشيرية وأمدَّته بقوة واجهَ بها الملمات والاضطهادات وحيداً منفرداً. ومع ان التاريخ لم يحتفظ الا بالنذر اليسير من كتاباته ولكن يكفينا منه كتابه القيّم: «درع الصلاة» فهو خير ذُخر وأجمل كنز للصلاة الخشوعية في تاريخ المرسليات

وريموند لل أول مُرسَل للمسلمين كان قويّ الاقتناع بأن أمضى سلاح ــ بل السلاح الأوحد ــ الذي به يصرع المؤمن جيوش الظلام هو الصلاة. وبين كتاباته التي سطَّرها في عصر الصليبيّين، ومحاكم التفتيش، قوله: «أيها الرب يسوع اني أعتقد اعتقاداً وطيداً بأن غزو الأراضي المقدسة لا يتم إلا بنفس تلك الوسيلة التي رسمتها أنت ونسج فيها على منوالك تلاميذك ــ بالمحبة بالصلاة، بالدموع، ببذل النفس الغالية رخيصة على مذبح الخدمة والتضحية. وإذا كان قد بدا ان امتلاك القبر المقدس والأرض المقدسة لا يتم الا بقوة السلاح، إذاً فليتقدم الرهبان في حلل الأبطال القديسين متزينين بعلامة الصليب وممتلئين بنعمة الروح القدس ليعلنوا لغير المؤمنين حقّ آلام فدائك. لتغمرهم محبتك القدسيّة فتتفجر مآقي عيونهم بالدمع الغزير، ولتنسكب آخر قطرة من دمائهم مثلما فعلت أنت حباً بهم

«يا رب السماء، ويا أبا كل الأزمات، عند ما أرسلت ابنك ليلبس طبيعتنا البشرية، قد عاش هو وتلاميذه مسالمين لليهود والفريسيين وسائر الناس. لم يحاول قطّ، بعمل من أعمال العنف والقسوة، أن يسبي إنساناً ليجعله ضمن أتباعه. وما قصد مرَّة أن يرد المثل بالمثل لأعاديه ومضطهديه. بهذه المسالمة قصد المسيح أن يردّ الضالّين إلى معرفة الحق. فلعل أتباعك والمؤمنين بك

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

ينسجون على منوالك يا أيها الفادي، في معاملة أخوتهم بني اسماعيل»

وفرنسيس الاسيسي، وزفيير، ووليم كاري، وهنري مارتن، وديڤد لفنستون وديڤد برينارد، ومَاري موفات، وماري سليسور، وجيمس جلمور، وان تباينت مؤهلاتهم وكفاآتهم، الا انهم كانوا شركاء في هذه الهبة الواحدة التي يمنحها الروح القدس ــ هبة الصلاة والتضرع لأجل الآخرين. وكل من يطالع تراجم هذه الشخصيات البارزة يجدها كلها شاهدة شهادة عالية ناطقة لقدرة الله الفائقة في اجابة الصلوات

لقد استطاعوا بهذه القوة السحرية العجيبة ــ قوة الصلاة ــ ان يواجهوا الأخطار والوحشة والمقاومات بقلوب عامرة بالايمان غير هيابة ولا وجلة. ان صلواتهم تذكرنا بصلاة يهوشافاط: «يا الهنا اما تقضي عليهم لأنه ليس فينا قوة أمام هذا الجمهور الكثير الآتي علينا ونحن لا نعلم ماذا نعمل ولكن نحوك أعيننا» (٢ أيام ٢٠: ١٢). ففي حياة تلك الشخصيات الكبيرة كما في حياة يهوشافاط ملك إسرائيل تتجلَّى هذه الحقيقة واضحة للعيان وهي: «ان يأس الإنسان خير فرصة لإظهار بأس الله»

وحريّ بنا أن نذكر أن أولئك الذين خاطروا بحياتهم لأجل الرب يسوع كانوا له خير سفراء في أقاصي البلاد وختموا شهادتهم بالاستشهاد، وكانوا شديدي الاعتقاد بقدرة الصلاة. فمن أقوال جيمس جلمور المرسل في بلاد المغول: «إذا عدمت مصلين لأجلي أصبحت كغائص في قاع البحر، والهواء منقطع عنه. أو صرتْ كاحد رجال المطافئ في قلب عمارة تلتهمها النيران وبيده خرطوم نفدت المياه من معينه». ولقد عبَّر جورج اليوت عن ثقته بالله

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

وحبه العظيم للهنود بشعاره الذي قال فيه: «الصلاة والجهاد في الايمان بالمسيح يأتيان بالمعجزات». وإليك الكلمة الختامية التي لفظها جون هانت على فراش الموت: «اصلي لأجل فيجي. يا رب خلّص فيجي»

ولقد شهد ادونيرام جدسون لقوة الصلاة المقتدرة، بقوله: «ما انشغلت قطّ بأمر ما، وصليت باخلاص وحرارة لأجل موضوع ما، الا وحصلت على جواب ما لصلاتي، في وقت ما، مهما طال الامد، وبشكل ما مهما اختلف هذا الشكل عما كنت أتخيله في فكري. لكنه جواب على كل حال. «وكانت حياة جون باتون شهادة حيّة ناطقة للصلاة المستجابة. بالصلاة كان يطلب الهداية في خدمته التبشيرية. بالصلاة اكتسب قوة على المثابرة في رحلاته المضنية المملة. بالصلاة كسب ثقة ومودّة الهمجيين الذين خدمهم. بالصلاة حفر آباراً فجادت له بالماء الغزير في أمكنة ضنت بها على سواه ممن حفروا من قبله. بالصلاة شلّ أيدي المجرمين الذين حاولوا اغتيال حياته، بالصلاة استطاع أن ينتقي أدق الألفاظ في ترجمة الإنجيل. بالصلاة بسط نفوذه وتأثيره على الشباب الذين صادفوه ابان اجازته في اسكتلاندة وأمريكا. وفي نور الأبدية أمام محضر نفوس جمهور المفديين سَيُماط اللثام عن النتائج الخفية التي كانت ثمرة صلوات رجل الله هذا

ولا شك ان تاريخ مرسلية الصين الداخلية عامر بالشهادات القوية المتواترة عن مكافأة الايمان في الصلاة. وما هذه بالمرسلية الأولى والأخيرة التي تدعم هذه الحقيقة وتؤيدها. فايمان فرنسيس زافيير كان مثال البطولة والاقدام تجاه المظالم والظلام حينما واجه الصين بالقول. «أيتها الصخرة الصماء

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

متى تنفتحين لمخلصي؟» ويبتر باركر أول طبيب مرسل في بلاد الصين عرف سر الصلاة كما فهم سر مهنة الطب. وكل جمعية مرسلة في بلاد الصين ــ وكذلك كل مركز تبشيري هناك ــ الكل يشهد لاقتدار الصلاة. لكن أقوى الشهادات وأوضحها وأفعلها هي شهادة مرسلية الصين الداخلية التي كانت حياة هدسون تيلور ــ رجل الايمان بالله ــ خير مطلع لها وأجمل استهلال. ان ايمانه الساذج بقدرة الصلاة منذ نعومة أظفاره يستدعي كل اعجاب ويسترعى كل التفات. كان هذا المؤمن الجبار يعتقد أن الكتاب المقدس هو «سفر اليقينيات» ويؤمن ان الله الحي هو حقيقة يقينيه ثابتة: «فهو يعني ما يقول ويفي بما وعد»

ان مرسلية الصين الداخلية قد تأسست عام ١٨٧٥ وهي تتألف الآن من ١٢٠٠ مرسل ومرسلة منتشرين في ٣٤٤ مركزاً تبشيرياً تتفرع منها ٢٠٠٠ محل تبشيري. منذ بدء عمل هذه المرسلية عمَّدت أكثر من ١٥٠.٠٠٠ نفس وانشأت ونظمت ١٢٣٥ كنيسة. والطريقة التي حصلت بها هذه المرسليَّة على المساعدات المالية من غير التجاء إلى الحث والاستجداء لهي حقيقة بأن تُكتب في سجل المعجزات. فهي حجة دامغة لعناية الله الحيّ بشعبه. ويقيناً أن مفتاح هذا السرّ قد كشف عنه هدسون تيلور نفسه في خطاب ألقاه في مؤتمر المرسليات المسكوني الذي انعقد بمدينة نيويورك عام ١٩٠٠، قال فيه:

«الله نفسه هو المنبع الأعظم للقوة. فقدرة الله. في متناولنا نحن البشر. فنحن إذا قوم فوق الطبيعة، لأننا وُلِدنا ميلاداً جديداً فوق الطبيعة، ومحروسون بقوة خارقة للطبيعة، ونقتات بطعام فوق الطبيعة، ويعلمنا استاذ

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

فوق الطبيعة من كتاب خارق للطبيعة. ويقودنا قائد فوق الطبيعة في موكب نصرته إلى النصر المبين

«فالوقت الذي نقضيه بين يدي الله منتظرين، لن يذهب ضياعاً. فهل تسمحون لي بأن أشير إلى اجتماع صغير حوي اثنى عشر رجلاً وانعقد في نوفمبر سنة ١٨٨٦ وكنت أنا أحد المجتمعين فيه؟ شعرنا وقتئذ ونحن في مرسلية الصين الداخلية بحاجتنا العظمى إلى الهداية الإلهية والارشاد السماوي في مسألة تنظيم العمل وفي ضرورة تعزيز قوتنا بالمَدَد الكافي. فاجتمعت كلمتنا على عقد مؤتمر لنقضي فيه ثمانية أيام في صلاة متحدة انتظاراً للارشاد والعون الالهَيين على أن نفرز منها أربعة أيام بالتتابع، للصيام والصلاة. وقد تمَّ لنا ذلك في شهر نوفمبر من عام ١٨٨٦. فأرشدنا الله أن نصلي طالبين منه أن يرسل إلينا مئة مرسَل عن يد مجلتنا بانجلترا ما بين يناير ــ وسبتمبر سنة ١٨٨٧. ومن المعلوم ان ايرادنا السنوي وقتئذٍ كان ثابتاً على نوعٍ ما منذ بضع سنين من ذلك التاريخ فكان يبلغ ٢٢.٠٠٠ فكان علينا إذاً أن نطلب من الله امدادنا بمبلغ ١٠.٠٠٠ جنيه أخرى علاوة على ذلك المبلغ الأساسي»

ولا تسل عن النتائج الباهرة التي كانت من ثمرات هذا المؤتمر الصغير. فقد أجاب الله صلوات رجاله وأرسل إليهم المرسلين الذين طلبوهم كاملي العدد وأرسل معهم ١١.٠٠٠ جنيه من أحد عشر شخصاً. حقاً ان صلاة الايمان هذه هي أكبر هبة من الله

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

والنهضة التبشيرية التي تزعمها وليم كاري ونفر قليل من رفاقه المعمدانيين، كانت وليدة الصلاة، واغتذت بالصلاة

ولقد صدق فيه ــ وليم كاري ــ هذا الوصف:

«شقَّ عليه أن يرى الناس الذين مات المسيح عنهم
جماعات جماعات موثقين بقيود جارحة قاسية
وهم محرومون من نور الحق الذي يبدّد الظلمات
ويبدد غيوم التعصب
لذلك جاهدَ جهاد الأبطال
حتى وُفِق إلى ترجمة كلمة الله
إلى لغات أولئك البشر. فشفت ما كانوا فيه من سقام
فصار شعاره الخالد يدوي في أذان الأجيال
«توقعوا أشياء عظمى من الله رب الجميع
وأقدموا على أعمال عظمى تلبية لندائه الكريم»

أما الأشياء العظمى التي ننتظرها من الله، والأعمال العظمى التي أقدم عليها إجابة لنداء صوت الله، فاللسان يعجز عن وصفها، لكن ألسنة أهل الهند ما زالت إلى اليوم تلهج بها

ان سجل تاريخ المرسليات هو أبلغ شهادة لهذه الحقيقة الجليلة ــ وهي ان انسكاب روح الله، ونهضة الكنائس، والاجتماعات الانتعاشية الكبرى، جاءت كلها نتيجة انتظار المؤمنين لله في الصلاة. فارسالية «الكوكب الفريد» المعمدانية في بلاد الهند، حيث اعتمد في يوم واحد ٢٢٢٢ نفساً، والنهضة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

التي حدثت في طوكيو ببلاد اليابان عام ١٨٨٣، وتلك التي اضطرم لهيبها في مدرسة مسِ فِسك بيوربميا سنة ١٨٤٦، والنهضة الكبرى التي غمرت سوماترا ونياس أبان الحرب الكبرى في وقتٍ عانت فيه المرسلية الألمانية آلاماً وشدة، والنهضة التي ألهبت أرض كوريا أخيراً، وعمل الله العجيب بين طبقات المنبوذين في الهند الجنوبية ــ كل هذه السنة ناطقة وحجج لا تدحض على أن الصلاة والمرسليات صنوان لا يفترقان. هذه حقيقة ظاهرة في حياة الافراد، والجماعات، وفي تاريخ المسيحية بأسرها

كل عقدة في المسألة التبشيرية اليوم، موقوف حلّها على الصلاة. حسناً قال الدكتور جون موط: «ان الموقف اليوم يتطلب من الكنيسة أن تفتح معين الموارد الالهية الخارقة، بصلاة الايمان. فالله وحده هو القادر أن يضبط قلوب البشر، وأن يطلق قوات الكنيسة من عقالها، وأن يكسر شوكة الأنانية البشرية ويمحق المطامع. والصلاة هي الأداة التي تبعث في البشر روح التطوُّع فينتدبون أنفسهم للخدمة وهي التي تحرّض الخبيرين على امدادهم بالمال

وحريّ بنا أن نتعلّم دروساً في الايمان من اختبارات الراعي جوستر الذي عاش في غضون عام ١٨٢٦. ذاك الذي إذ بلغ الثالثة والستين من العمر نبذ الوسائل الالية المألوفة في بافاريا المستخدمة لجمع المال للمرسليات. فابتكر نظاماً جديداً سداه الصلاة ولحمته الايمان. فلما كان راعياً لكنيسة بيت لحم في برلين شرع في ارسال مرسلين إلى الحقول التبشيرية النائية ومنذ ذلك الوقت إلى يوم وفاته استطاع أن يرسل مئة وأربعين مرسلاً ومرسلة وأمدهم

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

بكل مستلزماتهم، عن طريق الصلاة. ومن أقواله المأثورة: «اني أفضل أن أدق ناقوس التوسل على أن أحمل جرس التسوُّل». فلا غرو إذا كان هذا الراعي الجليل قد كتب أبهى صفحة في تاريخ المرسليات إلى الهنود، بواسطة مرسليته الملقبة باسمه

وفي عام ١٨٦٤ استطاع الراعي لويس هارمز بقوة الايمان والصلاة ان يكون مقدام فلاَّحي كنيسة هرمانز بورج في رفع لواء الإنجيل إلى أبعد البلاد، فتمكن من إرسال ٢٥٠ مرسلاً في ٣١ سنة. ولم تمضِ على مرسليته سوى أربعين سنة حتى كان قد ربح للمسيح ما يربي عن ١٢.٠٠٠ من مخالب الأوثان بواسطة مرسليته الناهضة

إذا كان تاريخ اقتدار الصلاة في عمل المرسليات ناصع الصفحات بهذا المقدار، فما أحوجنا إلى الاستمتاع بهذه الهبة الجليلة والانتفاع بها. ان هذه الهبة الجليلة ــ الصلاة ــ التي تقتدر مع الله وتظفر بالبشر لهي قنية أفخر من الذهب الابريز. لقد آن للكنيسة أن تعترف بعجز وسائلها الحالية عن سد ما يتطلبه العالم منها، فتلجأ إلى موارد الصلاة التي لا ينضب لها معين فتمدها بغمر جارف من فيض القوة الروحية. هذا هو مفتاح مشكلة المرسليات بأسرها

منذ بضع سنوات وضع أسقف سلسبوري الشروط الأساسية المثلثة التي رآها لازمة للصلاة المقتدرة الفعالة ــ وهي ــ القابلية، والطاعة، والمحدودية والتعيين

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

القابلية ــ ان العنصر الجوهري في كل صلاة هو أن تنفتح كل نوافذ النفس بسعة لترحب بقدوم روح الله إليها وان تنتظم في سلك إرادته عن رضى وطيب خاطر. لأن الثلاث العبارات الأولى في الصلاة الربانية تعيّن موقف الإنسان المصلي أمام الله

الطاعة ــ يجب أن يتسلح المصلي بنية خالصة لتعرف إرادة الله والاستعداد التام للعمل بموجبها. وأن يكون المصلي متحفزاً للقيام بعمل حاسم مهما انطوى على تضحيات ومخاطر لاعتزال كل أعماله وعوائده السالفة لأن قوة المسيح لتلاميذه ــ كانت ولا تزال ــ موقوفة على استعداد التلاميذ أن يعملوا ما يرضيه

التعيين ــ بما أن الله قد دعانا لأن نشاطره قوته المبدعة المجدّدة، وبما أن رغبتنا هي عنصر لازم لما يكون عليه العالم غداً: وبما أن نداءَه المستمر لنا هو «ماذا تريدون مني»؟ لذلك صار لزاماً علينا أن نعيّن طلبنا بشكل واضح لا يقبل اللبس والابهام

اننا متى وفَّينا هذه الشروط، أصبحنا مؤهلين للصلاة لأجل العمل التبشيري. وما أفسح الميدان أمام الصلاة في سبيل امتداد ملكوت الله

وإليك ما قاله الدكتور جوهانز وارنك في وصف ماهية الصلاة لأجل العمل التبشيري في الخارج ــ قال: «الصلاة هي قبل كل شيء ــ حسبما أوصى المسيح، طلب من الله أن يرسل فعله لحصاده، ثم هي طلب المزيد منهم في العدد وفي النوع، سواء أكانوا عمالاً وطنيين أو مساعدين أو مرسلين من الخارج. وبهذه المناسبة أشارَ إلى صلوات بولس أجل شركائه في الخدمة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

واعتبرها المثل الأعلى للصلاة في هذا الباب في كل آن. ولا شك أن رسائله عامرة بمثل هذه الصلوات

وهي تتضمن، عدا ذلك، الصلاة لأجل المتجدّدين، والباحثين والمرتدين وكل الذي ما زالوا أطفالاً في المسيح تنتابهم التجارب من كل حدب وصوب. والتوسل لأجل الكنائس الوطنية ــ وليدة عمل المرسليات لكي تحصل على الاستقلال الإداري والمالي والتبشيري والابتهال لأجل «الملوك وكل الذين هم منصب» في كل قطر ومصر، لتنفتح الأبواب أمام الإنجيل ولا يقف في سبيله حائل أو مانع، والتضرع لأجل السلام والاخاء بين الأمم

ولا يفوتنا أن نصلي لأجل أعداء العمل التبشيري ان داخل البلاد أو خارجها. ولأجل الذين يقاومون الإنجيل بتحقير وزراية، ويضطهدون كنيسة المسيح ظلماً وعدواناً. ولأجل كهنة الأديان الأخرى وأئمة المسلمين

وأخيراً يجب أن يكون الشكر متخللاً كل صلواتنا لأجل جميل صنائع الله معنا فيما مضى غير ناسين معجزات نعمته, وقوة روحه، وغير متناسين عمل الايمان وتعب المحبة وصبر الرجاء الظاهر في حياة المرسلين. اننا متى نسجنا في صلواتنا على هذا المنوال استطعنا أن نتحقق شيئاً عن العرض والطول والعمق والعلو في هيكل الصلاة لأجل المرسليات

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الفصل التاسع

نماذج في صلوات العهد القديم

ان تاريخ الكتاب المقدس في اختبار البشر، شبيه برق قديم خطت عليه الأيادي كتابات متباينة في أجيال متعاقبة، بعضها بعض. وهو مضيء بمشاعر البشر المختلفة في كل عصر ومصر. فالكتاب المقدس يلائم كل ثنايا القلب وفجواته. فهو كتاب عام. وقد يكون هذا القول أكثر ملائمة للعهد القديم منه للعهد الجديد، لأننا نلتقي في العهد القديم بمرآة المزامير الصافية التي وصفها أحدهم بـ «قلب الكتاب» وقال فيها كلفن: انها «تشريح لكل عناصر النفس الإنسانية». في هذا السفر الواحد تواجهنا كل الغموم والأحزان، والمخاوف والهواجس، والمعاثر، والآلام، والآمال، والمسرات، والتهليلات التي تختبرها النفس. فلا عجب إذا أصبح سفر المزامير كتاب الصلاة للمسيحيين في كل الأجيال

ان نهر البهجة الالهية فائض بالمياه للنفوس العطشى. وقد طمت مياهه وطفت فوق شطوطه فاضحت ماء حياة للأمم التي غمرت أرضها. حسناً قال جيمس جلمور الذي كان مرسلاً في بلاد المغول:

«عند ما أشعر أنني غير قادر على تركيز أفكاري للتقدم في الصلاة، افتح سفر المزامير، وألقي بزورق نفسي في مياهه الجارية، فتحمل نفسي مع تياره، الذي يتجه إلى الله دوماً. وفي معظم المواضع أراه تياراً قوياً عميقاً»

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

والآن قبل ان نتأمل في صلوات بطاركة، وأنبياء، وقديسي العهد القديم، يجمل بنا أن نقف هنيهة أمام سفر الأسفار ــ سفر المزامير ــ الذي ينبئنا عن تاريخ الصلاة، وسرها، وفنها. واننا نراه من الصعوبة بمكان ان نلتمس الكلمات التي تسعفنا في التعبير عن علو وسعة وعمق الاختبار الروحي الذي يتمتع به الإنسان في شركته مع الله بالصلاة. في سفر المزامير تتجلى لنا الصلاة كاملة في كل ركن من أركانها ــ التذلل، والندامة، والاعتراف، والتمجيد والتضرع، والتشفع، والتوسل، والشكر. وفوق ذلك انتظار النفس أمام الله في صمت وخشوع. ان لغة المزامير تلائم نفس الإنسان في كل ظرف وفي كل حال. فسفر المزامير هو أقدم وأقدس كل الأسفار التي جمعت بين دفتيها صلوات البشر السرية والجهرية. كنوزه لا تنفد. فلا غرو إذا أصبح النموذج الأعلى والنبع الذي لا ينضب له معين، لصلوات اليهود والمسيحيين على مر الأجيال. فكتب الصلوات التي يستعملها اللاتين، والارثوذكس، والانجليكان، تستمد جمال لغتها، وعمق تعبيرها في الاعتراف والتضرع، من سفر المزامير. هذا ما حمل وليم لو على أن ينصح لتلاميذه أن يهذبوا صلواتهم «بانتقاء أجمل العبارات وأقدسها، في التعبد والاعتراف، والتوسل والتمجيد، والندامة، والتشكر، من سفر المزامير، وترتيبها وتبويبها، لأن هذا يذكر لهيب التعبد في نفوسهم. ويمكننا أن نضم إلى قول وليم لو، شهادة ماكس مولر فيما يختص بمقام المزامير الاسنى في آداب كل الأديان:

«ليس في مقدور أي ناقد منصف بعد اطلاعه على صلوات الأمم الأخرى ومقارنتها بسفر المزامير، أن ينكر هذه الحقيقة الناصعة: وهي أن سفر المزامير يمتاز

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

عن الأسفار التي تتضمن صلوات سائر الأمم، في البساطة، والقوة، وسمو التعبير»

من أظهر أوصاف الصلوات المدونة في سفر المزامير، أنها عمومية في اتجاهها، تبشيرية في روحها. ليس لها من مثيل في صلوات سائر الأمم المطبوعة على الدوام بالطابع العنصري السلالي الضيق، فمع ان اليهود كانوا شعباً ذا طابع خاص ومدعوّاً من الله دعوة خاصة، لغرض خاص، الا أننا من ابرهيم إلى ملاخي نسمع نغمة واضحة قوية: هي أن الله أراد باسرائيل أن يكون بركة لجميع الأمم، وان مسيا هو الذي يملك على العالم بأسره

«فاجعلك أمة عظيمة. وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض»... «أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر»... لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها اسمي عظيم بين الأمم وفي كل مكان يقرب لاسمي بخور وتقدمة طاهرة. لأن اسمي عظيم بين الأمم قال رب الجنود» (تكوين ١٢: ٢، ٢٢: ١٧ وملاخي ١: ١١). ان هذه الفكرة عينها المتعلقة بالبركة العامة هي التي تشمل البشرية جمعاء عن طريق فداء اسرائيل. فقد ذكرت أيضاً في صلاة سليمان التي رفعها إلى الله بمناسبة تدشين الهيكل، ووردت في نبوات بلعام، والبركات الموسوية، والنبوات التي استعرضت أمام البشر، ملكاً عاماً سعيداً يسوده السلام والبر في كتابات اشعياء، وأرميا، ودانيال، وحزقيال، والأنبياء الصغار

غير أن هذه الرؤى والمواعيد قد تجلت بنوع خاص في الصلوات التي احتواها سفر المزامير، في شكل صلوات تبشيرية. ونغمة التتويج الرئيسية

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

نسمعها في المزمور الثاني: «اسألني فاعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي الأرض ملكاً لك». وفي المزمور الثاني والعشرين نجد القول: «تذكر وترجع إلى الرب كل أقاصي الأرض وتسجد قدامك كل قبائل الأمم. لأن للرب الملك وهو المتسلط على الأمم»

أما الصلاة التي حواها المزمور السابع والستون فهي من أعظم الصلوات لأجل المرسليات في كل العهد القديم: ولعلها رُتبت أولاً للترنيم الدوري في عبادة الهيكل: «ليحنن الله علينا وليباركنا. لينير بوجهه علينا... لكي يعرف في الأرض طريقك وفي كل الأمم خلاصك. يحمدك الشعوب يا الله يحمدك الشعوب كلهم...». فما أعجب التأثير الذي توجده هذه الصلاة العامة الشاملة! لاحظ أسماء الجمع في هذه الصلاة: «الأمم»، «الشعوب» «أقاصي الأرض». ولا تنس كلمة «كل» المتغلغلة في ثناياها. على هذا المثال نجد المزمورين السادس والتسعين، والمئة والواحد، فهما تبشيريان شاملان في اتجاههما.

«لتفرح السموات ولتبتهج الأرض
ليمج البحر وملؤه ليجذل الحقل وما فيه
لتترنم حينئذ كل أشجار الوعر أمام الرب
لأنه جاء ليدين الأرض
يدين المسكونة بالعدل والشعوب بالأمانة»

ولا تسل عن المزمور الثاني والسبعين فقد أضحى أساساً كبيراً لترنيمتين من أكبر الترنيمات التبشيرية التي يترنم بها المسيحيون. في هاتين الترنيمتين

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

المستمدتين من هذا المزمور، ترتسم أمامنا صورة ملكوت يسود فيه السلام والعدل بدل الحرب والنزاع حتى تمتلئ كل الأرض من مجد الرب اله اسرائيل

ولقد استطاع جيمس واطس أن يمتلك ناصية أقصر المزامير وينظم منه دعاء حاراً لأجل المرسليات في ثمانية اسطر. قال ما معناه:

من كل ساكن تحت قبة الفضاء
ليرتفع الحمد للرب ساكن السماء
مترنمين باسم الفادي المجيد
في كل أرض وبكل لسان طارف وتليد
أزلية هي مراحمك يا أيها العلي
وكلمتك تذيع الحق الأزلي
وصوت حمدك يدوي من قطر إلى قطر
إلى أن تضمحل الشمس ويزول القمر

على هذا المنوال صارت مزامير العهد القديم أساساً للترنيمات والصلوات في كنيسة العهد الجديد. ولعل المسيح وتلاميذه لم يلجأوا إلى مورد عداه، في التعبد والصلاة. ولا يغرب عن أذهاننا ان الكنيسة الأولى كانت تتغذى بالكتب المقدسة التي كانت وقتئذ مقصورة على «موسى والأنبياء». وكانت كلها تشهد للمسيح

وإذ ننتقل من دراسة الصلوات الواردة في سفر المزامير إلى التأمل في بعض الصلوات التي رفعها بعض الأفراد وسطرت على صفحات الأسفار

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

التاريخية، والأسفار النبوية في العهد القديم، نرى أنفسنا أمام بحرٍ خضمّ زاخر باللالئ الدرية الثمينة، فلا ندري أيها نختار وأيها نترك. ولكننا نكتفي بأن ننتقي بعضها لاعتبارين ــ أولهما شخصية المصلي (كما في صلاة ابرهيم مثلا) وثانيهما، يختص بطبيعة الصلاة ذاتها، كما في صلاة آسا في عشية المعركة المعهودة:

ولبلوغ غرضنا عن أخصر طريق لنضرب الآن صفحاً عن بعض الصلوات المسطرة على صفحات العهد القديم على رغم أهميتها نظير ــ صلاة اسحق (تكوين ٢٥: ٢١) وصلوات أيوب، وصلاة ملكي صادق (تكوين ١٤: ١٩ ــ ٢٠) وصلاة لوط (تكوين ١٩: ١٩)، وصلاة بلعام (عدد ٢٣: ١٠)، وصلاة حنَّة (١ صم ١: ٢٦)، وصلاة منسى (٢ ايام ٣٣: ١٢)، وصلاة ملك نينوى (يونان ٣: ٦)، وصلاة اشعياء في طلب النهضة (اشعياء ٦٤)، وصلاة حزقيا (٢ ملوك ١٩: ١٤). ونكتفي الآن بايراد ثمان صلوات هي ــ صلاة ابرهيم، وصلاة يعقوب، وصلاة موسى، وصلاة اليشع، وصلاة آسا، وصلاة نحميا وصلاة ارميا، وصلاة حبقوق. في هذه الصلوات نرى تنوُّعاً عظيماً في الظروف والاتجاه، لكننا نرى فيها كلها ذات الروح الواحد في الايمان والثقة بالله. ولقد وُفِّق هنري فروست إلى جمع الجانب الأكبر من صلوات قديسي العهد القديم في كتيب، عنوانه: «رجال الصلاة». قال في مقدمته: «ان رجال الصلاة هم أقدر الناس في هذا الحياة الدنيا. لا لأن الإنسان شيء في ذاته، بل لأن الله هو كل شيء. فرجل الصلاة يضع نفسه في موقف المتوسّل، والله في موقف المحسن الجوَّاد. وعند ما يُفسَح المجال لعمل نعمة الله، فان فيض سيلها ينهمر فيغمر الأرض ببركات تستحيل معها القفار بساتين وتصبح المعطشة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

واحة نضيرة مزدهرة. ومتى رجعنا بذاكرتنا إلى شعب الله المختار، وأصغينا إلى هدير صلواتهم وتضرعاتهم، أمكننا أن نتحقق أن المهمّ في الصلاة لا ان تكون نظريَّة، بل عمليّة مقتدرة في فعلها

فابرهيم دُعي خليل الله، وهو أبو المؤمنين، ولقد لُقِّبَ حقاً بـ «أول مُرسَل إلى ديار بعيدة». لأنه لبى نداء الله وترك أهله وعشيرته. وبين الصلاة المحفوظة له في سجل الكتاب، صلاته التشفعيَّة لأجل مدن الدائرة، وقد رفعها إلى الله بعد أن بلغ من العمر مئة عام. فامكنه أن يلمس أمانة الله ويتيقن من مراحمه، وهاك هي:

«فتقدم ابرهيم وقال افتهلك البار مع الأثيم. عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة. أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه. حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم. حاشا لك. أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً. فقال الرب ان وجدتُ في سدوم خمسين باراً في المدينة فاني اصفح عن المكان كله من أجلهم. فأجاب ابرهيم وقال اني قد شرعت أكلم المولى، وأنا تراب ورماد. ربما نقص الخمسون باراً خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة. فقال لا أهلك ان وجدت هناك خمسة وأربعين. فعاد يكلمه أيضاً وقال عسى أن يوجد هناك أربعون. فقال لا أفعل من أجل الأربعين. فقال لا يسخط المولى فاتكلم عسى أن يوجد هناك ثلثون. فقال لا أفعل ان وجدت هناك ثلثين. فقال اني قد شرعت اكلم المولى عسى أن يوجد هناك عشرون. فقال لا أهلك من

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

أجل العشرين. فقال لا يسخط المولى فاتكلم هذه المرة فقط عسى أن يوجد هناك عشرة. فقال لا أهلك من أجل العشرة»

(تكوين ١٨: ٢٣ ــ ٣٣)

ولكن يظهر من سياق القصة كأن هذه الصلاة ذهبت هباءً. لأن لوطاً وبعض أفراد عائلته قد أُنقِذوا، لكن مدن الدائرة قد هلكت. ولكن ما أعظم الدروس الكامنة بين ثنايا هذه الصلاة لمن يريد أن يتلقن ويتعلّم!! «أديّان كل الأرض لا يصنع عدلاً»؟ «حاشا لك أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم. حاشا». هذان السؤالان يحيَّران المؤمنين مثلما حيَّرا ابرهيم. وكذلك نحن أيضاً تصادفنا أحكام الله في التاريخ وتصادمنا، فنضطر أن نسترحم الله بدموع سخينة وتنهدات عميقة. لقد اشمأز ابرهيم من مفاسد سدوم، لكنه لما سمع بقضاء الله الوشيك، فاض قلبه بالحنان نحوها فتضرَّع لأجلها. فبرهن بذلك على انه «خليل الله» حقاً، وانه أبو كل الذين يفيضون بالعطف والحنان على الجماهير. هذا سر الصلاة التشفعية المثابرة المقتدرة

وهنالك صلاة أخرى مشهورة، في العهد القديم، ويحيط بها نفس هذا الغموض، هي مصارعة يعقوب مع الملاك: «لا أطلقك ان لم تباركني...» «وسأل يعقوبُ وقال أخبرني باسمك». هذه صفحة مقدسة في تاريخ حياة يعقوب. ومع انه لا يمكننا أن نسبر غور «المصارعة مع الله» الا ان هذه «المصارعة» كانت مصدر عزاء لكثيرين من القديسين على مرّ الأجيال. ان سبيل المُخادع الماكر محفوف بالأشواك والمكاره. فقد استنفد يعقوب كل حيلة في المكر والدهاء فأُسقط في يده. فلم يبق امامه سوى أن يلتجئ

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

إلى الله في وحدة لا تعرف الوحشة. وفي مجاهدته في الصلاة استنفد قواه الطبيعية. فما لم ينله بقواه، ناله بضعفه. ومع انه لم يستطع أن يعرف اسم الله الذي جاهد معه، الا انه نال بركة منه (تكوين ٣٢: ٢٦ ــ ٢٩)

وبعد مضي قرون على هذا الحادث، ألقى هوشع النبي نوراً ساطعاً عليه، فقال: «بقوته جاهد مع الله. جاهد مع الملاك وغلب. بكى واسترحمه. وجده في بيت ايل وهناك تكلم معنا» (هوشع ١٢: ٦). واليك شرح جون وسلي لهذا الحادث:

«هلم إليَّ يا أيها السائح المجهول
يا من أنا ممسك به وان كنت لا أراه
لقد هجرتُ الأهل والأصدقاء
وصرت وحيداً معك
وقد عولت على أن أقضي الليل في حضرتك
لأتصارع معك حتى مطلع الفجر
ألِن قناتك نحوي لأني ضعيف
ولكنني بالرغم من يأسي بنفسي واثق بك
قل كلمة لقلبي، إنْ بالكلام أو بالبركات
واسمح لصلاتي ان تستميلك نحوي
تكلم والا فاني لا أطلقك
واخبرني ما إذا كانت «المحبة» هي اسمك

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

اننا نرى نموذجاً آخر للصلاة المجاهدة، في صلاة موسى لأجل شعب اسرائيل المتمرد (عدد ١٤: ١٧ ــ ٢٤). في هذه الصلاة يتجلى أمامنا موسى مضحيّاً بنفسه لأجل شعب الله، ومتناسياً ذاته في سبيل المحافظة على كرامة عهد الله مع شعبه. ولعلنا لا نجد في الكتاب المقدس صلاة تفوق صلاة موسى في الجرأة والاقدام. فإذا أردنا أن نلمس ذروة هذه الصلاة، وجب علينا أن ندرس بامعان القرينة المحيطة بها:

«فالآن نتعظم قدرة سيدي كما تكلمتَ قائلاً: الرب طويل الروح كثير الاحسان. يغفر الذنب والسيئة لكنه لا يُبرئ بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع. اصفح عن ذنب هذا الشعب كعظمة نعمتك وكما غفرت لهذا الشعب من مصر إلى ههنا»

لقد كان موسى عظيماً في زعامته للامة الاسرائيلية، لكنه كان في صلاته لأجلهم أعظم. وان صلاةً على مثال صلاته لا بد أن تجاب. وإليك جواب الله العاجل: «فقال الرب قد صفحت حسب قولك». فيا لها من اجابةٍ سخية مصحوبة بوعدٍ دائم لكل الجنس البشري

ولنتقدم الآن إلى دراسة صلاة اليشع في دوثان (٢ ملوك ٦: ١٧). فهي أيضاً صلاة عجيبة، ووجه عجبها في ملابساتها وفي اقتضابها. لما انزعج غلام اليشع من جيوش بنهدد، فزع إلى سيده قائلاً: «آه يا سيدي كيف نعمل؟» فكان جواب اليشع له: «لا تخف لأن الذين معنا أكثر من الذين معهم» وطلب إلى الرب «أن يفتح عيني الغلام فيبصر. ففتح الرب عيني الغلام فأبصر وإذا الجبل مملوء خيلاً ومركبات نار حول اليشع». وما أكثر الأوقات

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

التي فيها رفع القديسون صلوات مثل هذه عند ما أحدقت بهم الأخطار في مدلهم الأوقات التي اكتنفتهم فيها الأعادي. لكن الله عند ما يفتح بصائرنا نستطيع أن نرى ما لا يُرى وأن نسمع ما لا يقوى غيرنا على سمعه، فنمسك بالحق الأزلي الخالد. فما أحوجنا كلنا إلى طرد الغيوم والسحب التي تقوم حائلاً بيننا وبين العالم الروحي الغير المنظور. «لأن التي تُرَى وقتية وأما التي لا ترى فأبدية». فلا تغرب عن بالنا هذه الحقيقة:

«ان ربوات الخلائق السماوية تتمشى على الأرض

محدقة بنا في يقظتنا وفي منامنا ونحن لا نرى، ولا ندري كيف»

كثيراً ما حدثنا مخلصنا يسوع المسيح عن الملائكة، وقرر للتلاميذ ان جمهور أجنادهم تحت امرته وسلطانه حتى في بستان جثسيماني

وإليك مثالاً آخر لصلاة الشدة، نلقاه في صرخة آسا التي انبعثت من قلبه إلى الله عند ما لمح قوات جنود الكوشيين (الأحباش) مهاجمة اسرائيل (٢ أيام ١٤: ١١). فاذ كان آسا مطمئناً واثقاً بان الله قادر أن يعطي نصرة للاقلية على الأكثرية ليعود المجد إليه وحده، دعا آسا الرب الهه وقال أيها الرب ليس فرقاً عندك أن تساعد الكثيرين ومن ليس لهم قوة فساعدنا أيها الرب الهنا لأننا عليك اتكلنا وباسمك قدمنا على هذا الجيش. أيها الرب انت الهنا. لا يقوى عليك إنسان». ولما خلفه يهوشافاط اقتفى أثره في الصلاة قبل الحرب التي أشهرها عليه رجال موآب، وبنو عمون «فجعل وجهه ليطلب الرب ونادى بصوم في كل يهوذا ليسألوا الرب. فوقف يهوشافاط في جماعة يهوذا واورشليم في بيت الرب». ورفع صلاته الشهيرة... «وكان كل يهوذا

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

واقفين أمام الرب مع أطفالهم ونسائهم وبنيهم» (٢ أي ٢٠: ٥ ــ ١٣) فمع ان قديسي العهد القديم كانوا عائشين في ضوء السَحَر فلم يدركهم نور الشمس، لكنهم حذقوا فنّ الصلاة «فامسكوا بالله» بعقولهم وقلوبهم، وارادتهم. فاستطاعوا بقوة صلاتهم «أن يخضعوا ممالك ويصنعوا براً وينالوا مواعيد»

طوبى لمن يوهب بصيرة روحية
يميز بها أن الله موجود بقربه في وقت لا يراه فيه سواه
فلا تفشل يا رجل الله بل تحقق من هو الله
وأنت في الظلم ساعات الحروب تستطيع أن تظفر بالظفر

ان هذه الكلمات التي سطرتها شاعرية فريدريك فابر، تحسب خير تفسير لصلاة نحميا التي رفعها إلى الله في أظلم ساعات حياته (١: ٥ ــ ١١) فقد كان نحميا وقتئذ ساقياً في بلاط ملك أرضي، لكنه كان في الوقت نفسه سفيراً لدى بلاط السماء. ولفرط حزنه على خراب اورشليم، وبؤس الشعب اليهودي الطريد، رفع صلاته الجديرة بكل اعتبار. فبعد أن التجأ إلى أمانة عهد الله وتذلل أمام الله عن خطاياه وخطايا شعبه، ذكَّر الله بعهد مراحمه الذي لا ينفصم عراه، وختم ضراعته بهذا الطلب: «أعط النجاح اليوم لعبدك وامنحه رحمة أمام هذا الرجل». ومع ان ذلك الرجل كان طاغية شرقياً، الا أن نحميا قد انتصر عليه بقوة الصلاة، فقام من صلاته جباراً صابراً ظافراً مثابراً، لا تلين له قناة. فما أحوجنا اليوم إلى سياسيين من هذا الطراز يكونون خير بنائين للمجتمع، بصيرورتهم أولاً رجال صلاة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

لقد بكى مخلصنا على أورشليم. ولم يستحِ بولس بدموعه. وإذا كانت الصلاة الحقة تقوم بسكب الدمع أمام الله، فقد كان ارميا بحق رجل صلاة:

«مضى الصيف وانتهى الحصاد ونحن لم نخلص... أليس بَلَسان في جلعاد أم ليس هناك طبيب... يا ليت رأسي ماء وعينيَّ ينبوع دموع. فأبكى نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبي» (ارميا ٨: ٢٠ و٢٢ و٩: ١)

فلا يجب إذا كان ارميا قد شُبّه بـ «تمثال من البرونز يذوب فيسيل دمعاً». فقد «التقت فيه قوة الرجولة بحنان الأمومة». كان رجل أوجاع ومختبر الحزن. عاش عيشة موحشة وتحمَّل آثام شعبه. فهو في حياته ودموعه رمز للمسيح، إذ قرَن نصيبه بنصيب البقية الباقية من منفييّ اسرائيل. والسفران اللذان يحملان اسمه يفيضان بروح التضرّعات لأجل الآخرين. أحياناً تجد صلاته غاية في الجرأة والاقدام، كما في قوله: «قد أقنعتني يا رب فاقتنعت وألححت عليَّ فغلبت. صرت للضحك كل النهار» (ارميا ٢٠: ٧). ان في مراثي ارميا كنوزاً روحية ثمينة ينتفع بها كل من يريد أن يغني نفسه في فن الصلاة. وقد لا نعثر في الكتب المقدَّسة على شيء يماثلها في الطلبات الملحَّة الحارة، والعبارات القوية الفعَّالة، والحجج القوية الدامغة. فمع انه يقول في مستهل تضرعاته: «انظر يا رب فاني في ضيق. أحشائي غلت. ارتد قلبي إلى باطني»... الا انه يقول بعد ختامها: «أردّد هذا في قلبي. من أجل ذلك أرجو. انه من احسانات الرب اننا لم نفنَ. لأن مراحمه لا تزول. هي جديدة في كل صباح. كثيرة أمانتك»

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

والآن نختم هذه التأمُّلات بالاشارة إلى أطول صلاة فاه بها حبقوق وهي تفيض شاعرية وشعوراً. فمع أن حياته محاطة بشيء من الابهام، ومع ان كتابة قصير لا يعدو ثلاثة فصول، الا انه يُستهلّ ويُختتم بالصلاة ــ وهي صلاة قوية حية، عند ما اطلع عليها راسكن قال: «وددتُ من أعماق قلبي لو أمكنني التعرُّف بحبقُّوق»

ان الفصل الأخير من سفر حبقوق هو صلاة واحدة مستمرة في طلب النهضة: «يا رب عملك في وسط السنين أحيه. في الغضب اذكر الرحمة». فهذا النموذج الحيَّ في الصلاة يبدأ بتمجيد الله في الخلق والفداء، ويستمر في طلب معونته تعالى لاسعاف اسرائيل وتخليصه من أيدي أعدائه... «انك ركبت خيلك. مركباتك مركبات الخلاص». وقبيل ختامه يفيض بالتذلل والاتضاع: «سمعت فارتعدت أحشائي. من الصوت رجفت شفتاي». ثم يختتم بنشيد الظفر والفرح: «فمع انه لا يزهر التين ولا يكون حمل في الكروم يكذب عمل الزيتونة والحقول لا تصنع طعاماً ينقطع الغنم من الحظيرة ولا بقر في المذاود. فاني أبتهج بالرب وأفرح باله خلاصي»

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الفصل العاشر

صلوات بولس

إذا استثنينا سفر المزامير، لا نجد في الكتاب المقدس، جزءاً عامراً بغنى التعبُّد، وعمق السجود والابتهال، وفيض الشكر، مثل رسائل بولس الرسول. فالحمدلة والبركة هما أظهر مميزات رسائل بولس. عن غير قصد منه، تنمّ رسائله عن غنى حياته الروحية بلغة تعبُّدية، خشوعية، تسمو بالنفس إلى محضر الله

وبغير تعمُّد رسم بولس في رسائله صورة لنفسه في مراحلها المختلفة ــ من اجتيازها ظلام الليل الدامس، إلى بلوغها نور النهار. ومن مبارحتها سجن الخطية إلى تمتعها بحرية مجد أولاد الله. وقد عبّر عن كل هذا بتنهدات عميقة، وتضرُّعات قوية، تفيض بها رسائله

قال الدكتور ألكساندر هويت:

«لقد أجاد بولس كل الاجادة في صلواته المدوَّنة في رسائله، فتجلى لنا منطقياً قديراً، ولاهوتياً ضليعاً، وقدِّيساً تقياً. فبعد ان سما بولس بالمكتوب إليهم إلى أقصى حد يستطيعون أن يرقوا إليه، تركهم وحلَّق فوقهم إلى ذرى الافلاك في صلواته. فكان هو في السماء الثالثة، وكانوا هم كأنهم في الوادي!!»

كان بولس «حياً ومتحركاً وموجوداً» في جوّ الصلاة الأعلى. لم يحاول أن يحاج قارئيه عن ضرورة الصلاة، لأنه كان مؤمناً بالله الحيّ الذي يسوس البشر ويدبر شئونهم بحكمته السامية، ويديرها بيده القادرة. وقد تلقى من

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الله اعلاناً مباشراً عن إرادته تعالى من جهته (غلاطية ١: ١٢ و٢: ٢). ونال من الله اجابات على صلواته: «لأنه وقف بي في هذه الليلة ملاك الاله الذي أنا له والذي أعبده. قائلاً لا تخف يا بولس. ينبغي لك أن تقف أمام قيصر. وهو ذا قد وهبك الله جميع المسافرين معك» (أعمال ٢٧: ٢٣ و٢٤). فما أجل هذا اليقين الذي حصل عليه بولس! فلا عجب إذا أردف ذلك بقوله: «لذلك سُرُّوا أيها الرجال لأني أومن بالله أنه يكون هكذا كما قيل لي» (أعمال ٢٧: ٢٥). ولا غرو إذا كانت عقيدة بولس في الصلاة هي الصخر القوي الذي تتحطَّم عليه اعتراضات «الفلسفات» العصرية والسفسطات الحديثة. فما من أحد يتصفح تاريخ حياة بولس، أو يدرس صلواته بامعان من غير أن يتيقن أن بولس كان على الدوام شاعراً شعوراً يقينياً بما وراء الطبيعة، وانه كان على اتصال وثيق بالغير المنظور، وعائشاً في محضر الله وان يكن متمشياً على الأرض، شديد الثقة باقتدار الصلاة في فعلها في كل حال. أتراه يكتب إلى المؤمنين قائلاً: «صلوا بلا انقطاع. اشكروا في كل حين على كل شيء؟» انه بقوله هذا يترجم عن حياته هو، وهو لا يدري. ويُخيَّل إلينا ان حياة بولس الروحية مركزة في هذه العبارة الموجزة التي كتبت عنه في غرّة حياته الجديدة: «هوذا يصلِّي» (أعمال ٩: ١١). فالحياة المسيحية الحقة هي حياة الصلاة. لقد طلب بولس لأجل نفسه، وصلى لأجل الآخرين، وتضرع لأجل الكنائس التي أسسها، وابتهل لأجل أسباط إسرائيل، وتوسل لأجل كل العشيرة البشرية. بامكاننا أن نتحقق قوة صلاته لأجل الافرد، من مراجعة القائمة الطويلة المسجلة فيها أسماء الافراد الذين ذكرهم بأسمائهم

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

في رسالته إلى روما وسائر رسائله. ففي رسالته الثانية إلى تيموثاوس كتب هذه العبارة: «اني أشكر الله الذي أعبده من أجدادي بضمير طاهر كما أذكرك بلا انقطاع في طلباتي ليلاً ونهاراً مشتاقاً أن أراك ذاكراً دموعك لكي امتلئ فرحاً». ومراراً طلب في رسائله إلى الأخوة المؤمنين أن «يصلوا لأجله» (١ تس ٥: ٢٥). وفي كثير من هذه الرسائل يذكر حاجاته الخاصة المُسلحة ــ منها: «ان يُنقَذ من الذين هم غير مؤمنين في اليهودية»، «لكي تكون خدمته لأجل أورشليم مقبولة عند القديسين»، ولكي «يفتح الرب له باباً للكلام ليتكلم بسرّ المسيح كي يظهره كما يجب أن يتكلم»، ولكي «تجري كلمة الرب وتتمجد»، ولكي «يُنقَذ من الناس الأردياء الأشرار» ولكي «يوهب لهم بصلواتهم» (رومية ١٥: ٣٠ ــ ٣٢ وكولوسي ٤: ٣ و٢ تس ٣: ١ وفليمون ٢٢)

كان بولس وطيد الاعتقاد بأن الله وأبا ربنا يسوع المسيح هو خير عضد عند ما يشتد الخطب. وهو يرثي لضعفاتنا. لأن التجسد قرَّب الله من الإنسان وكشف له عن قلب محبته

يا من إلى حضرتك ترتفع الصلوات الحارة وتضرعات الاسترحام

فتسمع الصلوات وتستجيب التضرُّعات

اكشف لنا عن قلب حبك واسمعنا نبضاته من خلال خليقتك

وابتسم لنا ابتسامة الإنسان لأخيه الإنسان

وإذا ما حاولنا أن نحلِل صلوات بولس الرسول ونعدِد نواحيها، ونصف مراميها، اعيتنا الحيلة لفرط تنُّوعها وغزارة مادتها. ولقد كتب مستر بوب من

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

منشستر، في إحدى المجلات عام سنة ١٨٧٥ أوراقاً متناثرة عن «صلوات بولس» فحلله إلى صرخات استغاثة ــ مركزة في كلمة أو عبارة، وتضرعات، وبركات، وتشكرات. ثم استخلص منها ثلاثة عشر طلباً ضمنها فيما يأتي:

صلاة لأجل ازدياد المحبة	(١ تس ٣: ١٢)
صلاة لأجل التقديس التام	(١ تس ٥: ٢ و٢٤)
صلاة لأجل اتمام مسرة الله	(٢ تس ١٠: ١١ و١٢)
صلاة لأجل التعزية الأبدية	(٢ تس ٢: ١٦ و١٧)
صلاة لأجل المحبة والصبر	(٢ تس ٣: ١٥)
صلاة لأجل الكمال المشترك	(٢ كو ١٣: ٧ ــ ٩)
صلاة لأجل وحدانية المؤمنين	(رو ١٥: ٥ و٦)
صلاة لأجل الرجاء	(رومية ١٥: ١٣)
صلاة لأجل معرفة ارادة الله	(كولو ١: ٩ ــ ١٤)
صلاة لأجل يقينية المعرفة	(كو ٢: ١ ــ ٣)
صلاة لأجل مجد ميراث القديسين	(افسس ١: ١٥ ــ ٢١)
صلاة لأجل حلول الله في قلب المؤمنين	(افسس ٣: ١٤ ــ ٢١)
صلاة لأجل صيانة المؤمنين إلى يوم المسيح	(فيلبي ١: ٩ ــ ١١)

من هذه: تسع صلوات مختصرة جداً، والخمس الأخيرة مستفيضة. وكلها طلبات واضحة حاسمة وتشفعات لأجل نعم وهبات روحية. ومن المهم أن نلاحظ أن خمساً من هذه الصلوات قد دُونت في الرسالتين الاوليين اللتين كتبهما بولس الرسول ــ إلى المؤمنين في تسالونيكي

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

أضف إلى هذه الصلوات تلك المقدمات التي يستهل بها بولس رسائله، وهي وان تكن في صيغتها تمنيات لأجل البشر، الا انها في جوهرها طلبات مرفوعة إلى الله: «نعمة ورحمة وسلام من الله أبينا والمسيح يسوع ربنا» (١ تيموثاوس ١: ٢). «نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح» (كولوسي ١: ٢)، كذلك الأمر في معظم الرسائل: تارةً في البدء وطوراً في الختام. فضلاً عن ذلك نلاحظ البركة الرسولية في ثلاث صيغ ــ مع شيء من التباين: «نعمة ربنا يسوع المسيح معكم» ــ هذه هي الصيغة الأولى والغالبة وكثيراً ما نراها مقتضبة في قوله: «النعمة معكم»، أو مسهبة في تلك الصيغة التاريخية الشائعة «نعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبة الله، وشركة الروح القدس مع جميعكم. آمين» (٢ كورنثوس ١٣: ١٤)

ومما يسترعي التفاتنا في هذه التحيات والبركات، ان «النعمة» هي الكلمة السائدة التي لها المكانة الأولى فيها. فكل شيء في نظر بولس، هو وليد النعمة: «لأنكم بالنعمة أنتم مخلصون»، «... نعمة ربنا يسوع المسيح انه من أجلنا افتقر وهو غني لكي نستغني نحن بفقره» (٢ كو ٨: ٩). فلقد أحب الرسول هذه الكلمة، فكانت هي العلامة المميزة له في كل رسائله. فالله في نظر بولس هو «اله كل نعمة». وبولس في نظر نفسه هو «أول الخطاة الذي لم يستحق ان يدعى رسولاً إلا بالنعمة».

وقبل دراسة صلوات بولس، نريد أن نتأمل أولاً في تشكراته ومن الملاحظ أنه يستهل شكرانه عادة بعبارتين ــ أولاهما: «مبارك الله»، والثانية «اني أشكر الله». فهو يشكر على نجاح الإنجيل، وطاعة القديسين

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

ونموّهم في النعمة، ومواهب الروح القدس، وشركة القديسين، وتعزية المتضايقين، وكل عاطفة مسيحية، وشركة أخوية. فقد كان قلبه على الدوام مفعماً بالشكر لله على آلائه، وعلى كل عطاياه التي توَّجها بعطيته التي لا يعبَّر عنها ــ المسيح!

فمتى أردنا أن نتعلَّم فنّ الشكر، لنسكب قلوبنا أمام الله مقرّين بفضله السامي علينا، حامدين له عنايته بنا في ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، وجب علينا أن ندرس صلوات الشكر التي رفعها بولس إلى الله:

«مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح أبو الرأفة واله كل تعزية الذي يعزينا في كل ضيقتنا حتى نستطيع أن نعزي الذين هم في كل ضيقة بالتعزية التي نتعزى نحن بها من الله» (٢ كور ١: ٣ و٤)

وإذ نسرّح الطرف في رسائل بولس يتجلى لنا بوضوح ان أعظم العقائد أهمية قد أُفرِغت، وصيغت، على نوعٍ ما، في شكل صلاة. وان معظم الصلوات التي نبحها الآن انما هي طلبات افرغها الرسول من قلبه ليكتنف بها السماء يومياً. وهي سكيب أشواقه العميقة، معلّمة الكنيسة في كل عصورها عن الصلاة التشفعية، ما يمكن أن تكون عليه، وما يجب أن تكونه والصلوات الخمس المسجلة في رسالتي تسالونيكي، والتي سبقت الإشارة إليها، مطبوعة بطابع الاختصار في التعبير وعمق المعاني. فالصلاة الأولى منصبَّة على طلب ازدياد المحبة. ثم أعقبتها صلاة مركَّزة في طلب التقديس التام، بكلمات تسترعي الالتفات:

«والرب ينميكم ويزيدكم في المحبة بعضكم لبعض وللجميع كما نحن أيضاً

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

لكم. لكي يثبت قلوبكم بلا لوم في القداسة أمام الله أبينا في مجيء ربنا يسوع المسيح مع جميع قديسيه... واله السلام نفسه يقدسكم بالتمام ولتُحفظ روحكم ونفسكم وجسدكم كاملة بلا لوم عند مجيء ربنا يسوع المسيح» (١ تس ٣: ١٢ و١٣ و٥: ٢٢ و٢٣)

تعتبر هذه الصلاة فريدة في بابها لاعتبارات كثيرة. فعباراتها مركَّزة تذكرنا بصلاة المسيح الشفاعية المسجلة في إنجيل يوحنا (يوحنا ص ١٧)، وهي موجهة إلى إله السلام، الذي هو صانع سلامنا، ونبع قداستنا. وهي تشتمل على عقيدة الثالوث ــ لا كمجرد عقيدة بل كحقيقة اختبارية، وهي مختتمة بوعد مُطلق، مستديم، مؤسس على أمانة الله

أما الصلوات الثلاث الأخرى المختصرة، المتضمنة في رسالة بولس الرسول الثانية إلى تسالونيكي، فقد سبقت الإشارة إليها. وفي ختام الرسالة الثانية إلى كورنثوس، نجد ما نسميه «عناصر متناثرة لصلاة رفعها بولس لأجل إصلاح حياة المكتوب إليهم»: «وأصلي إلى الله انكم لا تعملون شيئاً رديا ليس لكي نظهر نحن مزكين بل لكي تصنعوا أنتم حسناً ونكون نحن كأننا مرفوضون... لأننا نفرح حينما نكون نحن ضعفاء وأنتم أقوياء» (٢ كور ١٣: ٧ و٩). ومع ان قرينة الكلام هنا من الصعوبة بمكان، الا ان محبة بولس المضحية ظاهرة للعيان بأجلى بيان، لأن سر النزاع كان منصباً على عدم اعتبار أهل كورنثوس لسلطة رسوليته. وإذ نمرّ مرّ الكرام بالصلوات المختصرة المختصة بالاتحاد والرجاء، المدوَّنة في رسالة رومية (١٥: ٥ و٦ و١٣) نرانا وجهاً لوجه أمام تلك الصلاة الجامعة الشاملة المتضمنة في كولوسي ١: ٩ ــ ١٤ وهي مختصة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

بمعرفة إرادة الله. فقد طلب بولس في هذه الصلاة، لأجل حديثي الايمان من أهل كولوسي «ان يمتلئوا من معرفة مشيئة الله. في كل حكمة وفهم روحي ليسلكوا كما يحق للرب في كل رضى مثمرين في كل عمل صالح، ونامين في معرفة الله متقوين بكل قوة بحسب قدرة مجده لكل صبر وطول أناة بفرح» ثم ختم هذه الصلاة بحمدلة مثلثة للآب والابن «الذي لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا». كل كلمة في هذه العبارات المركَّزة زاخرة بالمعاني الغزيرة والأفكار السامية الجليلة، وهي بلا جدال حجج دامغة مؤيدة لقوة الرسول الملهمة. فما أعظم الفرق بين هذه الصلاة وبين صلواتنا نحن، التي كثيراً ما نحشوها بالألفاظ الجوفاء محاولين أن نستر بها فقر المعاني. أما صلاة الرسول فهي صراع قوي عنيف ضدّ «قوات الظلام»، والنصر فيها حليف المؤمنين إذا هم حملوا أسلحة النور

وهنالك صلاة مشابهة لهذه ــ وان تكن أقل منها جلاء ــ وردت في نفس هذه الرسالة (كولوسي ٢: ١ ــ ٤)، حيث طلب الرسول لأجل المؤمنين في لاودكية الذين لم يروا وجهه بعد «يقيناً فعالاً لمعرفة سر الله الآب والمسيح» وهي صلاة فاضت بها نفسه، «وأنَّات القلب تبعثها. وفي رسالته إلى أفسس نجد طلبتين مستفيضتين للرسول. أولاهما (أفسس ١: ١٥ ــ ٢١) تتناول مجد ميراث القديسين الذي لا يعرف قدره الا أولئك الذين استنيرت عيون أذهانهم فسلكوا في قوة حياة الرب المقام. وهي ــ كغيرها من صلوات الرسول ــ موجهة إلى الثالوث الأقدس ــ الآب، والرب يسوع المسيح، وروح الحكمة والاعلان. وكلٌّ من هذه الثلاثة الأقانيم قد ذكر مستقلاً متميزاً عن الآخر.

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

والصلاة مكتوبة بلغة القلب والاختبار. وهي متوَّجة في ختامها بعبارة جليلة عن الفادي المقام، قد انتقى الرسول ألفاظها من منجم اختباره السابق عند تجديده، حين ظهر له الرب في طريق دمشق «مقاماً من الأموات جالساً عن يمين الله في السماويات. فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يسمى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً». فصلاة الرسول إذاً مفعمة بالتمجيد لأنه لم ينس لحظة «مجد ذلك النور» الذي رآه «في الطريق» فسقط على الأرض من هول ما رأى وسمع، وهناك تسلَّم مقاليد رسالته

أما الصلاة الثانية المدوَّنة في رسالة أفسس، فهي بالنسبة لكل صلواته، بمثابة قُدس الأقداس للهيكل. فهي في عمقها، وسعتها، وجلالها، وغناها، وسموها، تفوق كل كتابات الرسول وتسمو فوقها: «بسبب هذا أحني ركبتيَّ لدى أبي ربنا يسوع المسيح الذي منه تسمى كل عشيرة في السموات وعلى الأرض» ثم أردف هذه الديباجة بخمس طلبات، وختمها بحمدلة جليلة فائقة. وقد يُتاح لنا أن نتعرف شيئاً من المعاني السامية التي تنطوي عليها إحدى الطلبات المتضمنة فيها، متى تأملنا في هذا المكتوب الذي أرسله الأسقف ادوارد بكرستيث من اليابان وهو في الثامنة والعشرين من عمره إلى أخيه الأصغر وقد كان وقتئذ في دلهي. قال فيه:

«ان نتائج جهود المرسليات، تتمشى مع درجة روحانية العمَّال في هذه المرسليات. فزِدْ إذاً النار المتقدة في قلبك اضطراماً، وضاعف تمسكك بالحقائق العلوية السامية، وقوِّ شعورك اليومي بالتمتع بحضرة الله، واسمح للمسيح بأن يحلّ في قلبك بالايمان. واسحق الاثرة والانانية والخطية، عندئذٍ

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

يتمكن الله من أن ينجز بواسطة عاملٍ أو عاملين أو ثلاثة عمال متوشحين بهذه المؤهلات في وقت قصير، أضعاف ما ينجزه في مدة طويلة بخمسين عامل من الطراز العادي المألوف»

كذلك كانت حياة بولس المفعمة بروح التعبد والصلاة، عاملاً مهماً في إعداد مسيحيين من الطراز الأول في القرن الأول

وفي ختام هذه الصلوات، نذكر صلاةً أخرى لبولس، ذُكرت تفصيلاً في رسالته إلى فيلبي (فيلبي ١: ٩ ــ ١١). في هذه الصلاة تضرَّع بولس لأجل المكتوب إليهم كي «تزداد محبتهم أيضاً أكثر فأكثر في المعرفة وفي كل فهم حتى يميزوا الأمور المتخالفة لكي يكونوا مخلصين وبلا عثرة إلى يوم المسيح». ان «يوم المسيح» هو نقطة الارتكاز في هذه الصلاة. «فيوم المسيح» هو فجر الأبدية، ورجاء المفديين، وتاج التاريخ. حسناً قال أحدهم: ان بولس الرسول كان يتكلم بلغة «هذا اليوم» و«ذلك اليوم»، ولعله لم يعرف مميزاً آخر للزمن لأنه إنما كان عائشاً للأبدية وفي الأبدية

والمشكلة التي تواجهنا، ونحن ندرس صلوات بولس، هي صلاته غير المستجابة المتعلقة بشوكته التي أُعطيها في الجسد. ان مشكلة الصلاة الغير المستجابة، تأتي في صُوَر ثلاث. أحياناً يكون عصياننا سبباً في عدم استجابة صلواتنا ــ كما في صلاة شاول في جبعون. وأحياناً أُخرى تُعاق اجابة صلواتنا، حتى تكتسب صلواتنا قوة بالمثابرة واللجاجة ــ كما في صلاة ايليا على جبل الكرمل. ومراراً أخرى يستجيبنا الله على طريقته هو، لا على طريقتنا نحن. فيجيب داعي ارادته الصالحة، ويغضي عن إرادتنا الخاطئة. هذه هي الحال في

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

عدم استجابة صلاة بولس، فلم ترفع عنه الشوكة التي أُعطيها في الجسد: «من جهة هذا تضرَّعت إلى الرب ثلاث مرات أن يفارقني. فقال لي تكفيك نعمتي لأن قوَّتي في الضعف تكمل»

في الاصحاح الحادي عشر من هذه الرسالة عينها، سمعنا بولس مدافعاً عن رسوليته، ثم رأيناه محلّقاً في سماء الأعالي حتى بلغ السماء الثالثة، ولكنه من ذلك العلوّ الشاهق، هبط إلى وادي الاتضاع والمسكنة، فحدثنا عن «الشوكة التي أُعطيها في الجسد ــ ملاك الشيطان ليلطمه لئلا يرتفع». وليس مما يعنينا الآن أن نبحث في ماهية الشوكة التي أعطيها بولس، سواء أكانت علةً جسدية أم مثبطات روحية، أم تجارب جسدانية، أم صرعاً، أم حمى ملاريا، أم رمداً خبيثاً. فلكلٍّ من هذه الآراء، أنصار أقوياء. ولكن ليس لأحد أن يجزم بصورة قاطعة عن حقيقة ماهية هذه الشوكة التي أصابت الرسول العظيم. ومهما يكن من أمرها، فانها كانت له بمثابة جثسيماني ــ جسدياً، وعقلياً، وروحياً. فقد عرفنا الرسول ان الكبرياء كانت عدوه الروحيّ اللدود، وان الألم كان له خير حليف وشريك. فلما صلى في المرة الثالثة، أجابه الرب بالقول «تكفيك نعمتي لأن قوَّتي في الضعف تُكمل». الآن، والآن فقط، استطاع الرسول أن يقول: «فبكل سرور أفتخر بالحري في ضعفاتي... لأجل المسيح لأني حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قويّ»

هنا صبر الصلاة التي وان تكن حسب الظاهر غير مستجابة، الا انها في الوقع مجابة أحسن إجابة. هنا نصرة الايمان:

«إلى الآن لم يأت الجواب»؟ لكن الايمان لا يسكت عن عدم الاجابة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

لأن قدميه راسختان على صخر الدهور
وفي وسط العاصفة الهوجاء يظل ثابتاً غير متزعزع
فلا تلين قناته أمام قوة الرعد القاصف
لأنه يعلم علم اليقين ان القدير قد سمع الصلاة
فلا غرو إذا صرخ صرخة الواثق: لا بد من أن يأتي الجواب
بصورة ما، وفي وقت ما»

حسناً قال روبرت سبير بصدد شوكة بولس: «لقد حدثنا بولس في صمته أكثر مما رغب أو أراد. لأن صمته نمَّ عن روحه الطاهرة، الجريئة الظافرة. فلما أدرك ان في شوكته درساً وتدريباً له، قام إلى عمله بطلاً كما عهدناه». لقد تعلم بولس لا أن يصلي على الدوام وكفى، بل أن يكون شاكراً في كل حال، لأن فرح الرب هو قوته»

فاذ كنتَ تشعر بأن صلاتك حمل عليك، وان شوكتك التي في الجسد عبء عليك، بدلاً من أن تكون بركة، وإذا رغبت في أن تتعلم سر الشركة مع الله، وأن يكون قلبك ملتهباً بحبه لمجده، إذاً فاعكف على قراءة رسائل بولس ودراسة صلواته وابتهالاته وتشكراته. لأن الرجوع إلى بولس في هذا الباب انما هو روجوع إلى المسيح، عن طريق آخر، ومن ثم تتقدم مع المسيح في مدرسة الصلاة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الفصل الحادي عشر

«الصلاة الربانية»

منذ تسعة عشر قرناً، عند سفح أحد الجبال، علَّم المسيح تلاميذه، لأول مرة، تلك الصلاة التي تفوق في جمالها وكمالها، كل صلاة الشهيرة بـ «الصلاة الربانية». ولعلها سُميت بهذا الاسم، لأن الرب سلمها لكنيسته، ولأنها خير كنز لتعاليمه، وأجمل تعبير لحقيقة روحه. وفي الواقع، ليست هذه صلاة ربنا بالذات، بل هي الصلاة التي رسمها وقصدها لتلاميذه. فهو لم يعرف خطية، لذلك لم تكن به حاجة إلى طلب الغفران. وليس في الكتاب ما يدلنا على أن المسيح صلى هكذا ــ وان يكن قد صلى في جثسيماني لكي تتمّ إرادة الآب. وكل ما تعلمه عن سبب رسم هذه الصلاة، هو ان التلاميذ طلبوا إلى فادينا المجيد أن يعلمهم كيف يصلون: «يا رب علمنا أن نصلي» فأعطاهم هذه الصلاة تلبية لهذا الطلب: فقال «متى صليتم فقولوا أبانا الذي في السموات..»

ولسنا نعرف فصلاً من الكتاب شغل حيّزاً في كتب التفسير والأدب المسيحي، مثل الحيز الذي احتلّته هذه الصلاة. لما كان جون نوكس على فراش الموت ستة ١٥٧٢، ردد الصلاة الربانية مردفاً كل طلبة بعبارة توضيحية تفسيرية: «أبانا الذي في السموات... ومن يجرؤ على النطق بهذه الكلمات القدسية الجليلة؟!»

وهل في مقدور أحد أن يضيف شيئاً جديداً إلى ما قيل وكُتب عن

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

هذه الصلاة الجامعة الشاملة، التي هي بحق صلاة الدهور؟ لقد كشف دانتي عن بعض خفايا أسرارها في المقطوعة الحادية عشرة من قصيدته: «الكوميديا الالهية ــ المطهر». ويعتقد بنجال ان رسالة بطرس الرسول الأولى هي كلها تفسير للصلاة الربانية. وقال كرليل: «هي صوت النفس البشرية والطموح القلبي لكل ما هو جليل ومقدس». وعند ما جرد فرنسيس نفسه من الثياب الموهوبة له من أبيه وأعادها إليه، قال:

«اسمعوا كلكم وَعُوا. إلى هذا اليوم كنت أقول لبيترو برناردون: «يا أبي». ولكنني الآن أرغب في أن أخدم الله. لأجل هذا رددت إليه كل ما له عندي من مال وكساء. لأنني منذ اليوم لا أريد أن أنطق إلا بهذه الكلمات: «أبانا الذي في السموات».

هذه الصلاة تُلمَّ بكل أشواق القلب المصلي. وهي تشتمل على الرغبات الروحية التي تجيش في صدور البشر في جميع أنحاء المعمورة، وتحتوي في عبارات سهلة، كل وعدٍ إلهي، وكل آلام البشر وحاجاتهم، وكل أماني المسيحيين لأجل غيرهم. هي أقصر، وأعمق، وأغنى كل الصلوات التي رفعها البشر. ولا عجب فان الذي رسمها هو المسيح ابن الله، العليم بقلوب البشر وآلامهم وآمالهم

شبهها بعضهم بحجر من الماس الكريم ذات عدة أوجه تشعُّ منها تعاليم الانجيل وحياة ربنا وصفاته، وعمل الروح، وقوة الحياة المفتداة، وتاريخ

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

ملكوت الله ونصرته النهائية. هي صلاة بسيطة لكنها طريفة. سهلة جداً فمن الميسور ترديدها. لكنها صعبة جداً، فمن العسير إجادة فهمها. وديعة في عباراتها، لكنها متسامية في علوّ مراميها. طبيعية وخارقة للطبيعة في آن واحد. هي بزرة كل صلاة حقيقية وهي الذروة. إذ تلوناها على مهل محاولين أن نسير غور عباراتها القصيرة، أعادت إلى ذاكرتنا كلمات ديمتري مريكوسكي التي قالها عن الإنجيل:

«هو سفر عجيب. لا يمكنك ان تستنفد عمق معانيه وأنت تقرأه. وكلما أمعنت في قراءته، يخيل إليك إما انك لم تفرغ من قراءته، أو انك نسيت ما قرأت، أو انك عجزت عن فهم جُلّ ما قرأت. وكلما أعدت الكرة في القراءة، عاودك هذا التصوُّر مرات بلا عدد. مَثَلك في هذا، مثل من يتطلع إلى النجوم في قلب ليلة ظلماء، كلما زاد تمعناً ازداد عدد النجوم في نظره».

وسنحاول أن ندرس في هذه العجالة، سؤالين والجواب عنهما، بشأن هذه الصلاة ــ أولهما: لِمَن توجَّه هذه الصلاة؟ والثاني: باي روح تُرفع هذه الصلاة؟

خلافاً لما يقول به «المتعاصرون» و«الانسانيون»، نؤمن نحن من جانبنا، ان الصلاة الربانية تفيض بروح المسيح. فلا يمكن أن يتفهمها ويصلي بها إلا المسيحي الحقيقي. فإذا تساءلنا: «إلى من نصلي» و«بأي روح نصلي»، وجدنا في هذه الصلاة عينها خير اجابة على هذين السؤالين.

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

تُقسم الصلاة الربانية، عادة، إلى ثلاثة أقسام ــ المقدمة، والطلبات، والخاتمة. والطلبات المتضمنة فيها، ست ــ ثلاث تتعلق بالله وملكوته، وثلاث تختص بالإنسان وحاجاته. الثلاث الطلبات الأول تكشف عن غنى الله الغير المحدود. والثلاث الطلبات الأخيرة تحدثنا عن فقر الإنسان الذي تملأه نعمة الله وحدها.

وقد لاحظ الدكتور ثولوك: «ان القارئ النابه الذي له إلمامة بعقيدة الثالوث، يستطيع ان يتبين من ترتيب الطلبات في هذه الصلاة، شيئاً عن عقيدة الثالوث. فالطلبتان الأوليان في شطري هذه الصلاة تشيران إلى الله ــ الخالق، والحافظ. والطلبتان الثانيتان في هذين الشطرين موجهتان إلى الله الفادي، والطلبتان اللتان بهما يُختتم شطرا الصلاة، موجهتان إلى الله الروح القدس. وقد لا يظهر لنا هذا جلياً لأول وهلة، ولكن كلما أمعنا النظر فيها ودققنا البحث والتحليل، تبينت لنا هذه الحقيقة بوضوح. فكما يتفرس الإنسان في ورقة مالية أمام ضوء ساطع، فيتبين الرسوم الدقيقة الخفية الحاملة طابع المعمل الذي صنعت فيه، كذلك عقيدة الثالوث تتجلى لكل متأمل في كثير من فصول العهد القديم، والعهد الجديد

حقاً ان الصلاة التي علمنا المسيح اياها، تشبه مرآة ينعكس عليها مجد الله الآب، والابن، والروح القدس ــ ان لم يكن تصريحاً فتلميحاً. كما يظهر من صيغتها وترتيبها:

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

المقدسة	الطلبات		الخاتمة
أبـــانـــــا	ليتقدس اسمك	خبزنا كفافنا اعطنا اليوم	لأن لك الملك
الـــــــذي	ليأتِ ملكوتك	واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا	والقوة
في السموات	لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض	ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير	والمجد

«فصلوا أنتم هكذا» ــ ونحن شاعرون بصلتنا الشخصية بالله أبينا، والله فادينا، والله مقدسنا. ففي المقدمة ذُكر الثالوث ضمناً. فالله أزلي، غير متغير في وجوده وصفاته. لأنه هو أبونا الآن كما كان منذ البدء ولا يزال كذلك إلى الأبد. وابن محبته كان في حضن الآب قبل كون العالم. وروحه كان يرف على وجه الغمر، وهذا الروح عينه هو وحده الذي يؤهل كل مؤمن لأن يقول: «يا أبا الاب».

الطلبة الأولى مختصة باسم يهوه المهوب والقدوس في كل صفاته. والطلبة الثانية تتناول ملكوت «مسيا» ابن الله ــ ملكوت النعمة في القلوب البشرية، والقوة في العالم الحاضر، والمجد في العالم العتيد. هذا الملكوت

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

للثلث مختص بالمسيح. وهو ملكوت أزلي غير محدود في مداه، ولا تحيطه حدود جغرافية. والطلبة الثالثة منصبة على الإرادة التي هي أعمق سر في الشخصية الإنسانية: «لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض»

«ارادتنا مِلك لنا وان كنا لا ندري كيف

إرادتنا مِلك لنا، لكننا نجعلها ملكاً لك»

ان تكييف الإرادة البشرية المتمردة، وطبعها وفق إرادة الله، من عمل الروح القدس وحده كما يستفاد من الكتاب المقدس. فهو الذي يذكي في قلوبنا شرارة الايمان، ويطبع إرادتنا طبق فكره ومراد، ويغلب فينا كل احجام وتردد، ويضرم في قلوبنا شوقاً لاتمام إرادة الله

والطلبات الثلاث المتضمنة في الشطر الثاني من هذه الصلاة منسَّقة على هذا الترتيب عينه. فالطلبة الأولى موجهة إلى الله آب الجنس البشري، لأن عيون الكل تترجاه وهو يعطيهم طعامهم في حينه. يفتح يديه فيشبع كل حي رضى عن غناه. وهو يمنحنا طعامنا اليومي، وخبزنا كفافنا، والطلبة الثانية موجَّهة إلى ابن الإنسان الذي له سلطان على الأرض ان يغفر الخطايا. فهو الذي تشفع في المذنبين، وبكى على الخطاة، ومات لأجل المذنبين، وكفر عن خطايا العالم أجمع: «اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا» «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يعملون»

أما الطلبة الثالثة والختامية، فهي تتعلق بعمل الروح القدس: «ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير». فالإنجيل المقدس يحدثنا عن المسيح قائلاً: «أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس. وكان يقتاد بالروح

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

في البرية». فالروح القدس، والروح الردئ، يتصارعان معاً في ميدان العالم، وفي ساحة قلب الإنسان. قد لا يؤمن البعض بوجود الله، وينكر وجود الشيطان. لكن إذا كان المرء مؤمناً بالله فلسنا ندري لماذا لا يعترف بوجود الشيطان. فالكتاب المقدس يعلمنا ذلك. ولقد أجاد مريكوفسكي في قوله:

«من يستطيع في هذه الأيام ان يؤمن بما كان المسيح يؤمن به في عصره؟؟ كان المسيح يعتقد بوجود الشياطين. لكننا لسنا نشاطره الآن هذا الاعتقاد». هذا ما يدعيه خادم بروتستانتي ساذج. بينما إذا استطاع طالب صغير، في يومنا الحاضر، أن ينسب إلى المسيح أخطاء في تقدير جوهر الشر والشرير، فمن أدرانا أن نفس هذا الغر الجهول ينسب له أخطاء أخرى في تقدير جوهر الخير، وبالتالي في معرفة الله نبع كل خير وصلاح؟ وهل من هدم للمسيحية بعد هذا؟

«طوال المدة التي قضاها المسيح على أرضنا، كان يجاهد ويصارع» ضد الشرير باعتبار كونه ذاتاً حقة متمثلة في الشيطان. ولا شك أن الطلبة الأخيرة: «لكن نجنا من الشرير تشير إلى الشيطان على هذا الاعتبار»

ونحن نوافق قلبياً على هذا الرأي

فالطلبة السادسة، إذاً، مرفوعة إلى الروح القدس، الذي هو وحده القادر أن يعطينا نصرة على التجربة وان يرشدنا إلى كل الحق

ومن الملاحظ أيضاً ان «الحمدلة» التي تختتم بها الصلاة الربانية ــ مثل المقدمة ــ موجهة إلى الثالوث الأقدس: «لأن لك الملك» ــ يا أيها المسيح، والقوة ــ يا أيها الروح القدس، «والمجد» ــ يا أيها الآب،

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

كما كان منذ البدء، وهو الآن، وسيكون إلى دهر الدهور، وفي هذا الصدد يقول بولس الرسول: «ومتى أخضع له الكل، فحينئذ الابن نفسه أيضاً سيخضع للذي أخضع له الكل. كي يكون الله الكل في الكل» (١ كور ١٥: ٢٨)

وسواء أقبلنا رأي ثولوك أم رفضناه، فمن المحقق ان الصلاة الربانية تعلمنا ان توجّه صلواتنا إلى كل أقنوم في اللاهوت. فعلى الجميع أن يكرموا الابن والروح القدس مثلما يكرمون الآب. ومما لا جدال فيه، ان المسيحيين الأولين كانوا يرفعون صلواتهم إلى كل من أقانيم الثالوث الأقدس

فصلاة استفانوس التي رفعها وقت استشهاده، وُجهت إلى يسوع المسيح، وبولس تضرع إلى الرب يسوع المسيح، كي يعقده من الشوكة التي في الجسد. وصلاة التشفع مرفوعة إلى الروح القدس بدليل القول: «والرب» ــ أي الروح ــ «يهدي قلوبكم إلى محبة الله وإلى صبر المسيح». وفي تسبيحة الشكر التاريخية التي تستهل بالقول: «الشكر لك يا الله»، نلاحظ أن عبادة الآب والابن والروح القدسن قد اندمجت معاً في عبارة واحدة منسجمة كما في الصلاة الربانية. فالصلاة المسيحية يجب أن تُرفع إلى الله، في المسيح بالروح القدس. ومن مزايا توجيه العبادة إلى الثالوث الأقدس، ان المصلي لا يقع في خطأ المتكلم عن الروح القدس بصيغة التأنيث كما لو كان شيئا لا شخصا. فهو معزينا، ومرشدنا، ومنير قلوبنا وسبلنا، ومعلنا، وهو وحده الذي يجعل المسيح حقيقة حية في اختبارنا. من أجمل الترنيمات اللاتينية القديمة، ترنيمة مرفوعة إلى الروح القدس، مطلعها: «تعال يا أيها الروح الخالق». وقد كتبت في الغالب بقلم غريغوري الأعظم

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

(٥٠٤ ــ ٦٠٤ م) ولعلها خير شرح للطلبة السادسة. فالصلاة الربانية، إذن هي صلاة مسيحية بكل معنى الكلمة. وفي نظرنا لا يليق تلاوتها في محافل تجمع اليهود والغير المسيحيين على اعتبار انها عامل مشترك بين جميع الأديان. لأن هذا يذهب بشيء من «طلاوة مسيحيتها». ففي هذه الصلاة لنا قدوم بالمسيح إلى الآب في روح واحد عن ثقة. فالقدوم إلى الآب بالمسيح في روح واحد. حسناً قال ترنش رئيس الأساقفة، في إحدى مواعظة مخاطياً جماعة من المؤمنين:

«الصلاة هي عمل الله، الله الروح القدس. هي عمله فيكم، وبكم. ومع أنكم عاملون معه، لكنها بالرغم من كل ذلك، هي عمله وحده»

هذا يأتي بنا إلى السؤال الثاني: هو ــ بأي روح يمكننا أن نرفع صلاة الدهور هذه؟ والجواب على هذا السؤال مستمد من كلمات الصلاة نفسها. فهي تتطلب منا روحاً بنوية، وقورة، وفيَّة، خاضعة، معتمدة، تائبة، متضعة، واثقة، ظافرة، متهللة، مخلصة:

روحا بنوية: بها نخاطب الله قائلين: «أبانا» ! فنحن أبناؤه بحكم الخلق والتبني، والميراث الأعظم. ونحن جميعاً في المسيح أخوة. فالله وأبو ربنا يسوع المسيح الذي منه تسمى كل عشيرة، يرحب بأبنائه في كل امة وشعب وقبيلة، كعائلة واحدة. فمن الواجب أن نقترب منه بروح البنوة

روحا وقورة: لأنها نبدأ صلاتنا طالبين أن يتقدس اسم الله. فنحن إذاً واقفون على أرض مقدسة حين نرفع هذه الصلاة لأن الذي يأتي إلى الله

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

يجب أن يؤمن بأنه قدوس. فيجب أن تخشع قلوبنا في حضرته تعبداً واجلالاً: «لتيقدس اسمك»

روحا وفية: هذا هو محك كل اخلاص. بهذه الروح نتقدم إلى ملكنا مصلين لأجل ملكوته. فهل نكون أمامه مخلصين، صادقين، وامناء واوفياء، أم نكون متمتمين بكلمات عاطلة لا تجدي؟ حين نصلي قائلين: «ليأتي ملكوتك» يجب أن تكسر كل الأنصاب والتماثيل التي في هياكل قلوبنا ليكون المسيح ملكنا الأرفع على عرش القلب الأوحد

روحا خاضعة: هذا يقوم باخضاع إرادتنا وتسليمها لإرادة الله تسليماً تاماً كما أن الملائكة في السماء ينظرون على الدوام وجه مخلصنا ويتممون إرادته بفرح وبهجة، كذلك يجب علينا نحن سكان الأرض أن نخضع أنفسنا ونطبعها وفق إرادته الصالحة المرضية الكاملة

ان مفتاح سلامنا مع الله ليس في عنادنا بل في تسليمنا لله

روحا معتمدة: «خبرنا كفافنا اعطنا اليوم». هذه حسب الظاهر، من أقصر الطلبات لكنها من أعظمهن. فاذ نطلب من الله الخبز الأرضي، يهبنا فوقه المن السموي، هذه إذاً صلاة الاعتدال والقناعة بما وهبنا الله إياه. قد يدفعنا الفقر إلى اليأس والضجر، وقد يرفعنا الغنى إلى البطر والكبرياء، لذلك تتجه هذه الصلاة إلى اتقاء الطرفين ــ فكلاهما ان زاد قتل. كي نكون على الدوام معتمدين على الله

حسناً قال ملتبي بابكوك في إحدى مواعظه:

«من وراء الخبز، الدقيق

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

ومن وراء الدقيق، المطحنة
ومن وراء المطحنة، الشمس والمطر
وارادة الآب السماوي».

وبما أن أعمالنا العادية، وواجباتنا اليومية، ومشاغلنا المنوعة. لا تخلو من الخطأ والخطية، فمن الواجب علينا أن نتسلح بروح التوبة والندامة. «اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا» غير ان غفراننا للاخرين لا يعتبر أساساً لمغفرة الله خطايانا، ولا قياساً لها، لكنه شرط أساسي لها. هذه أقوى عبارة فاحصة في الصلاة الربانية: ان من لا يغفر للناس، لا حق له أن ينتظر مغفرة من الله

أغفر لنا اللهم! هذا هو طلبنا الذي نتقدم به إليك
أغفر لنا حسب كثرة مراحمك
لأننا عليك وحدك اعتمدنا
فكن قوَّتنا وحصنننا وبرنا
أغفر لنا يا حمل الله الجريح
يا من نقضت أوجاع الموت وكسرت أبواب الضريح
أفدِ نفوسنا يا كاهننا الأعظم
وقل لنا كلمة الحل والغفران

ونحن أيضاً في مسيس الحاجة إلى الروح الوديعة لنتمكن بها من معرفة ضعفاتنا فنتقي قوة تجاربنا. «لا تدخلنا في تجربة». إذا كان قبل الكسر

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الكبرياء، قال قبل الانتصار، الوداعة المقيمة، والمحبة الصادقة المخلصة القويمة

ان نستطيع أن نبلغ ذروة الصلاة الربانية إلا بروح الثقة، والظفر، والتهليل والتمجيد «لأن لك الملك والقوة والمجد». نحن نعلم أن ملكوت الله آت حقاً، وان قوة الله قمينة بالتغلب على كل الصعاب ومواجهة كل المطاليب، فإذا انتظرنا بثقة واطمئنان استطعنا أن نرى مجد الله. وكذلك نختتم الصلاة الربانية بحمدله تمجيدية يشترك في التهليل بها جميع المؤمنين.

وهل ننسى ختم الاخلاص: «آمين» !؟ إذا أردنا أن نسبر غور معاني هذه الكلمة العبرية، وجب علينا أن نتأملها حسبما صدرت من فم المسيح في كلامه اليومي «آمين. آمين ــ أي الحق الحق ــ أقول لكم». فما أكثر ترديد هذه العبارة على لسان المسيح! وما أجل المواقف الدقيقة التي فاه بها فيها! أليس هو نفسه «الآمين» (رؤ ٤: ١٤) الشاهد الأمين، لكل صلاة صادرة عن اخلاص؟! «فصلوا أنتم هكذا» إلى الإله المثلث الأقانيم، وبالروح الحق (٢ كور ١: ٢٠)

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الفصل الثاني عشر

صلوات ربنا

قال أوتو بورخرت: مع ان المسيح هو مثالنا في الصلاة، وقد سلَّمَنا الصلاة الربانية، الا انه في الصلاة ــ كما في كل شيء آخر ــ يمتاز عنا ويسمو فوقنا، فلا نستطيع أن نجاريه. فلم يصلِّ قط مع تلاميذه في زمرة واحدة، لكنه كان ينفرد بعيداً عنهم ويصلي. كما انه لا يليق بمثله ان يصلي صلاة العشار بالرغم من كونه قد حبَّبها إلى تلاميذه: «اللهم ارحمني أنا الخاطئ» لم تلفظ شفتاه كلمة واحدة يُشمُّ منها روح الاعتراف بالخطأ. ومع انه كان شاعراً على الدوام بوجوده في محضر الله، الا انه كان يخلو للصلاة تحقيقاً لهذا الشعور. فيه حل كل ملء اللاهوت جسدياً، ومع ذلك كان يرفع وجهه نحو السماء وهو يصلي. صلى لأجل أحد تلاميذه لكي لا يفنى ايمانه إذا دخل في تجربة (لوقا ٢٢: ٣٢). إنَّ له صلة ممتازة فريدة بالله لدرجة لا يدانيه فيها سواه. لذلك كانت صلاته مختلفة كل الاختلاف عن صلاة غيره. لقد صلى قائلاً: «لتكن لا ارادتي بل إرادتك». لكنه صلى أيضاً قائلاً «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني». هذه نغمة التباين الظاهرة باستمرار في صلوات المسيح لأنه إله تام وإنسان تام. هذا هو الذي ظل إلى آخر حياته على الأرض متشفعاً في المذنبين، ولم يكن قط في حاجة إلى شفاعة أحد ــ وما عرفنا عنه

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

قط انه طلب من تلاميذه أن يصلوا لأجله. فما أعظم الفرق بين صلاة بولس وصلاة المسيح في هذا الباب!!

ان الجانب الأعظم من صلوات المسيح محوط بشيء كثير من السر والغموض. فالصمت الرهيب يخيم على الثلاثين عاماً التي قضاها في الناصرة لكن من المحقق أنها كانت سني شركة مع الله، وتشفُّع لأجل العالم، واستعداد لخدمته العظيمة ورسالته الجليلة

مَن علَّم المسيح صلاته الأولى كطفل؟ أي المزامير اليهودية ــ إن في الصلاة أو في الشكر ــ كان المسيح يحبُّها أكثر من غيرها؟

يعتقد البعض ان أحب اسفار العهد القديم إلى المسيح، سفر التثنية، لأنه اقتبس منه أكثر من غيره من الأسفار. وما على المرء إلا أن يقرأ بامعان الأربعة الاصحاحات الأخيرة منه حتى يكتشف غني كنوز التعبد والتشفع الكامنة بين ثنايا قصيدة موسى الختامية

ويجمل بنا أن ندرس بتدقيق هذه الكلمات التالثة التي دبجتها براعة جون بيتر لانجى عن صلوات المسيح:

«من غنى بحار صلوات المسيح الالهية، تندفق اللآلئ الدرية التي تتألف منها صلواته القصيرة المحفوظة لنا في سجل الكتاب. من خلال هذه الصلوات نرى في المسيح أمير البشرية الأوحد حتى في ميدان الصلاة ــ مع علمنا بأنه أخفى عنا الجانب الأعظم منها. ولم يكشف لنا الا الجانب اليسير حسب مقتضيات الأحوال. فإذا شبهنا عمله بشجرة باسقة استطالت أغصانها حتى لامست هدب السماء، واكتنفت بظلالها العالم أجمع، فان صلاة المسيح

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

هي أصل هذه الشجرة، فانتصاره على العالم يُعزى إلى عمق شركته مع الله. وفي صلواته تجلت أيضاً حقيقة طبيعته البشرية. فالمسيح باعتبار كونه ابن الله هو الوحي متجسداً. وباعتبار كونه ابن الإنسان، هو الدين متأنساً»

ان أول اشارة في الإنجيل، تربنا المسيح مصلياً، قد وردت في إنجيل لوقا، حيث نجد القول: «ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً. واذ كان يصلي انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة وكان صوت من السماء قائلاً: «أنت ابني الحبيب الذي به سررت». ثم يقول لوقا بعد هذا «ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة». فما أعمق حياة الصلاة الكامنة في سني الصمت هذه. وما أجل انتصارات الايمان، وما أعظم أتعاب المحبة التي شهدتها الناصرة وحدها في هاتيك السنين «الخوالي»

قد أمسكت عيوننا عن رؤيتك
عند ما وطئت قدماك هذا العالم المليء بالخطية والموت
وفاتنا ان نرى منزلك الوضيع
في الناصرة الحقيرة
لكننا نؤمن بأن قدميك قد وطئتا
شوارعها وميادينها يا ابن الله»

يحدثنا انجيل لوقا، عن حياة المسيح التعبدية، واحتفظ لنا انجيل يوحنا بعمق التعبيرات التي استعملها في صلواته. يخبرنا لوقا عن الأربعين يوماً والأربعين ليلة التي قضاها المسيح في البرية بعد عماده، وانه بعد ابرائه كثيرين من المرضى «خرج إلى موضع خلاء» (لوقا ٤: ٤٢) ــ ومن

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الواضح انه كان مختلياً في الصلاة مع الله. وبعد أن طهر الأبرص «وذاع الخبر عنه حتى اجتمع جموع كثيرة لكي يسمعوا ويشفوا من أمراضهم» إذا به قد «اعتزل في البراري ليصلي» (لو ٥: ١٦). وفيما بعد نرى اليهود يمتلئون حمقاً عليه متكالمين فيما بينهم ماذا يفعلون بيسوع» لكن يسوع في تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي. وقضى الليل كله في الصلاة لله» (٦: ١٢) ويعرفنا يوحنا «ان يسوع علم في البدء من هم الذين لا يؤمنون به ومن هو الذي يسلمه» (يوحنا ٩: ٦٤ و٧٠) من أجل ذلك قضى الليل كله في الصلاة قبل اختيار تلاميذه ــ ومن بينهم يهوذا الاسخريوطي. حسناً قال بورخرت «هذا الموقف الحاسم قد تطَّلب منه تضحية كبرى لأنه رضى ان يحتضن «الأفعى» طوعاً واختياراً»

ولا شك في أن كاتب الرسالة إلى العبرانيين كان عالماً ببواطن حياة المسيح التعبدية عند ما كتب في رسالته عن المسيح قائلاً: «الذي في أيام جسده إذ قدم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرعات للقادر أن يخلصه من الموت وسُمع له من أجل تقواه». ولعل هذه الروح غير مقصورة على صلاته المعروفة في جثسيماني بل دمغت كل صلواته. ويحدثنا لوقا عن صلاة المسيح لأجل بطرس (لوقا ٢٢: ٣٢). فقد عرف المسيح خفايا القلب البشري وخباياه. فلما علم ان شجاعة بطرس قد خانته مثلما خانته أيضاً عواطفه وقلبه وفكره، صلى لأجله لكي لا يفنى إيمانه. ولا شك ان صلاة كهذه كلفته جهداً وأنينا. ومن المؤلف ان بطرس كان جالساً حول النار يصطلي في الوقت

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الذي كان المسيح متحملاً فيه البصق والجلد: «ولكنني طلبت من أجلك كي لا يفنى ايمانك»

وإذا كانت الصلاة هي زفرة التنهد، فان هذا الوصف ينطبق على زفرة المسيح التي انبعثت من صدوره في قوله: «للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار أما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه» (لوقا ٩: ٥٨)

«اطعن نفسي يا رب برؤية آلامك
لئلا أوصد باب قلبي دونك مرة أخرى
ثم تعالَ وتمدد على فراشي الوثير
إذا لم تجد مكاناً تسند إليه رأسك
لأن لي أوكاراً وأوجرة ألجأ إليها هارباً
فاطردبي يا ربي منها كلها
حتى أجدك في وحدتي وغربتي
خير سلوى لنفسي وخير بيت لقلبي»

لقد صلى المسيح لأجل الصغار (متى ١٩: ١٣) عند ما وضع يديه عليهم. وشكر قبل صنعه معجزة اطعام الآلاف، بصغار السمك وقليل من الخبز (متى ١٥: ٣٦). وكذلك شكر قبل العشاء الرباني (٢٦: ٢٧). ولقد صلى أيضاً قبل «ان تتغير هيئته» على جبل التجلي. فما من أحد كشف سر الصلاة، غير المسيح. إلى هذه الحقيقة يشير بطرس ضمناً في إحدى رسائله فملكته الهيبة فاكتفى بالتلميح دون التصريح. والبشائر لم تحتفظ الا بأربع صلوات مختصرة وصلاة واحدة مستفيضة، من كل صلوات المسيح: ــ شكره

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

المسجل في متى ١١: ٢٥، وشكره الآخر المدوَّن في يوحنا ١١: ٤١ ــ ٤٢، وصلاته الشفاعية المسطّرة في يوحنا ١٧، وصلاته في جثسماني، وصلاته على الصليب «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون». فشكره في المرتين المذكورتين آنفاً ينطق بأفصح لسان، معلماً ايانا أن المسيح كان على الدوام شاعراً ومتيقناً بصلته الوثيقة بالآب. إلى هذه الصلة الوثيقة يُعزَى البون الشاسع بين صلوات المسيح وصلوات تلاميذه: فصلوات المسيح فريدة وفذة في بابها كما تبين من شكره في المرتين التاليتين:

«في ذلك الوقت أجاب يسوع وقال أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الآب لأن هكذا صارت المسرة أمامك. كل شيء قد دفع إليَّ من أبي. وليس أحد يعرف الابن الا الآب. ولا أحد يعرف الآب الا الابن ومن أراد الابن أن يُعلن له»

«ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال أيها الآب اشكرك لأنك سمعت لي وانا علمت انك في كل حين تسمع لي. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا انك أرسلتني»

قال بورخرت في هذا الصدد:

«كانت صلاة المسيح الصدى اللازم لصوت الله الذي كان يسمعه منه على الدوام لقربه الوثيق منه. فكانت صلاته تتمشى جيئة وذهاباً مثل الوشيعة، بينه وبين الآب... وعلى ضفاف بحيرة جنيسارت، ربما لأول مرة ــ والمرة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

الوحيدة اتخذت الصلاة تعبيراً مسموعاً واستحالت من مجرد الكيان إلى فعل ذهني باطني ــ هو في الآب والآب فيه»

لا يمكننا أن نسبر غور حياة المسيح التعبدية لكننا نقف أمامها خاشعين متعبدين. فإذا ما دققنا البحث في صلاته التشفعية الكبرى وجدنا أنفسنا أمام أرض مقدسة. ويلوح لنا ان انجيل يوحنا هو فَرَمان التصوف المسيحي. لأن الشخص الذي اتكأ على صدر المسيح حقيق بأن يصل إلى عمق معاني التجسد. ولقد أصاب أريجانوس إذ قال: «ما من أحد يفهم هذه الصلاة الا مؤلف هذه البشارة، لأنه اتكأ على صدر يسوع»

في هذه الصلاة التشفعية العظيمة، تتجلى لنا مقاييس التشفع ــ الطول والعرض والعمق والعلو. قال جون لوكس لزوجته قبل وفاته ببضع ساعات: «ابحثي عن مكان ألقى فيه أول مرساة لي». فاجابته إلى طلبه وقرأت له الاصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا. وحسناً فعلت، لأن هذا الاصحاح خير صخرة نلقي عليها مرساة نفوسنا، لأنها مؤتمنة وصادقة غامرة بالمواعيد العظمى الثمينة

هذه الصلاة موجهة من الابن إلى الله الآب بواسطة الروح القدس، فكلمة «الآب» ذكرت فيها ست مرات، ووردت مرتين مقرونة بالكلمتين: «قدوس» و«بار». وتقسم هذه الصلاة بوجه عام إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول يتعلق بالمسيح نفسه (١٧: ١ ــ ٥) والقسم الثاني يتعلق بتلاميذه (١٧: ٦ ــ ٩)، القسم الثالث يتعلق بكنيسته (١٧: ٢٠ ــ ٢٦). في القسم الأول طلب المسيح إلى الآب أن يمجده بالمجد الذي كان له عنده قبل كون

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

العالم. وفي القسم الثاني صلى لأجل التلاميذ باعتبار كونهم أداة في يده لتنفيذ قصده واتمام رسالته في العالم. وفي القسم الثالث، وقد رأى افق الخدمة يتسع أمام تلاميذه حتى يشمل العالم كله، رفع صلاة لأجل جميع المؤمنين في الحال والاستقبال «كي ينظروا مجده الذي أعطيه من الآب... وليكون فيهم الحب الذي أحبه الآب به ويكون هو فيهم». ولقد صدقت فراسة الاستاذ وليم كرفر، الذي نظر إلى هذه الصلاة من وجهة أخرى، فرآها برمتها صلاة تبشيرية

ها قد أتت الساعة الفاصلة التي يقدم فيها المسيح نفسه كفارة عن العالم، ويظهر فيها محبته الظافرة على الخطية والشر. ولأن الآب قد أعطى الابن سلطاناً على كل جسد، فهو إذاً يستطيع أن يهب الحياة الأبدية لكل المؤمنين باسمه. ومتى عرف العالم اسم المسيح وحقيقته، تم بذلك العمل الذي وضعه المسيح على عاتق تلاميذه. «المسيح غرس في حياة البشر وأذهانهم طبيعة الله ورسالته ــ هذه هي البزرة التي تنبت وتنمو فتصبح شجرة كبيرة». صلى المسيح لأجل القطيع الصغير من تلاميذه كي يحفظوا في الايمان والاتحاد، ليؤمن العالم بالمسيح. «كما أرسلتني إلى العالم، كذلك أرسلهم أنا إلى العالم». فالتلاميذ هم منقذو برنامج ارسالية المسيح، لأن عليهم ان يحملوا رسالته بروحه ويتمموا شركة آلامه. من أجل هذا نرى ان هذه الصلاة تضم جميع الذين سوف يؤمنون بالمسيح ــ ذلك الجمع الحاشد الغفير الذي رآه يوحنا في رؤياه شعباً لا يعد.

في تلك اللحظة الرهيبة، فاض قلب المسيح بآماله، وأشواقه، وتمنياته وانتظاراته، ومقاصده، فقال:

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

«أيها الآب البار ان العالم لم يعرفك. أما انا فعرفتك. وهؤلاء عرفوا انك انت ارسلتني. وعرفتهم اسمك وسأعرفهم ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون انا فيهم» (يوحنا ١٧: ٢٥ ــ ٢٦)

بعد أن قدم يسوع المسيح هذه الصلاة، خرج مع تلاميذه إلى عبر وادي قدرون حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه ــ وهناك نراه أيضاً مصلياً. ونغمة الظفر التي تجلت في صلاته التشفعية قد استحالت الآن إلى أنين وجهاد في الصلاة. فالفردوس الذي أضاعه الإنسان بعصيانه في البستان، قد استرده ابن الإنسان بطاعته حتى الموت موت الصليب. هذا هو مجد بستان جثسيماني الذي أشار إليه روديارد كبلنج بقوله:

«كان آدم بستانياً. والاله الذي خلقه قد رأى فيه ذلك
فعلم ان نصف عمل البستاني الصحيح ينجزه وهو على ركبتيه
وكذلك عند ما تيم عملك. اغسل يديك وصل.
لكى لا يذهب عنك مجد البستان
ولسوف تتحقق أن مجد البستان لن يزول»

وقد استطاع سدني لينر أن يوقع نغمة أعلى وأوضح في تفسيره مجد جثسيماني. ولعلك تذكر انشودته التي مطلعها: «إلى الغابات مضى سيدي» لكن لوقا الطيب والفنان المبدع، قد وضع نغمة أعلى وأسمى من الكل حين قال: ــ

«وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلى. قائلاً يا أبتاه ان شئت ان تجيز عني هذه الكأس. ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك وظهر له ملاك من السماء يقويه. وإذ كان في جهاد كان بأشد لجاجة وصار

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض» (لوقا ٢٢: ٤١ ــ ٤٤)

ويخبرنا متى ان هذه الصلاة تكررت ثلاث مرات. وان يسوع خرَّ على وجهه أثناء صلاته في البستان. بينما قد اكتفى يوحنا بالتلميح، عن التصريح في هذه الصلاة بالذات. هنا بدء وحشة آلام المسيح التي توجت حياة الناصري على الأرض: «كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة» هذا هو انذار الخطر. وعند ما بدأ المسيح يحزن ويكتئب، إذا بالذين كان ينتظر منهم أن يسهروا معاً، فتثقلوا بنوم عميق. فواجه المسيح ظلام هذه الساعة الرهيبة وحيداً منفرداً وصرع المجرب وحيداً منفرداً، وصلى ثلاث مرات وقام ظافراً منتصراً، وحيداً منفرداً. هذا هو الدرس الذي يلقيه علينا

«يا من تشعر بقوة المجرب
ادخل إلى جثسيماني في الظلام
وانظر صراع فاديك ضد العدو
واسهر معه ساعة مريرة واحدة
ولا تعرض عن آلام سيدك
بل تعلم منه كيف تصلي»

حسناً قال توما القمبيزي: عند ما تبلغ الدرجة التي تستعذب فيها الضيقات وتستطيبها لأجل خاطر المسيح، سر إذاً وابتهج لأنك قد وجدت الفردوس على الأرض. لأن بقبولك الآلام وخيبة الآمال بسرور وبهجة قلب، قد قبلت شركة آلام ذاك الذي صلى قائلاً: «ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت»... «فظهر له ملاك من السماء يقويه»

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

وهنالك صلاة أخرى مختصرة مسطرة في الإنجيل عن مخلصنا، هي صرخته على الصليب «الهي الهي لماذا...» المتبوعة بكلمته المطمئنة الهادئة: «يا أبتاه في يديك أستودع روحي»

«ولما مضوا به إلى الموضع الذي يدعى جمجمة وصلبوه هناك مع المذنبين واحداً عن يمينه والآخر عن يساره». هذا أولى كلماته السبع على الصليب وهي أعظم تعبير عن المحبة الفائقة المعرفة والغفران الذي تخطى كل حدود، والمعرفة الإلهية لجهالة البشر وغباوتهم وخطيتهم، والرحمة السرمدية التي تضم الجميع. فحيثما كثرت الخطية البشرية وتخطت الحدود، فاضت النعمة الالهية وتخطت كل حد. يا لعمق غنى حكمة الله ورحمته الظاهرتين في هذه الصلاة الشفاعية المختصرة. عند بدء الصليب وعند نهايته، خاطب يسوع الله بقوله «يا أبتاه!» فالمسيح الذي كان متمتعاً على الأرض بسلطان مغفرة الخطايا، طلب عند الصليب مغفرة خطايا كل الذين أساؤا إليه بتكرارهم هذه الخطية على مر الأجيال. انهم لم يعرفوا ماذا يفعلون ولا من هم يطلبون، «لأنهم لو عرفوا لما صلبوا رب المجد» (١ كو ٢: ٨)

وبين الكلمات السبع التي فاه بها المسيح على الصليب، كلمتان تُحسبان طلبتين. أولاهما (حسب تعبير مسز براوننج في ختام مرثيتها على قبر كوبر)

«... توسطت خطايا آدم بين الابن البار وبين الآب
فصرخ عمانوئيل صرخة هزت أركان العالمين
قائلاً في وحشته «الهي أحقاً قد تركتني»؟
فصعدت هذه الصرخة من فم القدوس لأجل خليقته الساقطة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved

لكي يفدى الخطاة الساقطين من هذه الصرخة الموحشة!!»

وحالاً بعد هذه الصرخة المرة التي لا يمكننا أن نسبر غورها، جاءَت تلك الكلمة الختامية: «يا أبتاه في يديك أستودع روحي»

وهكذا انقضت حياة المسيح التعبدية على الأرض فاتصلت حلقاتها بخدمته التشفعية في السماء، التي يقوم بها مذ صعد عن يمين العظمة في الأعالي «لأنه حي يشفع فينا». ولأنه شاركنا في اللحم والدم، يعرف جبلنا ويذكر أننا تراب ــ من ثم يستطيع أن يترفق بالجهال والضالين

نعم لا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي. لكن الروح يشفع فينا بأنات لا يُنطق بها. فعلى ضوء صلوات المسيح نستطيع ان نفحص صلواتنا. فإذا كنا لا نقضي وقتاً كافياً في العبادة، وإذا كانت عظمة محبة المسيح وجلاله لا تستأسر نفوسنا، فلنتعلم كل هذا من المسيح، فنصلح طرقنا

إذا فقدنا الرغبة الملحة، والتعطش القوي إلى تخليص النفوس وتبريرها، فلنتعلم ذلك من المسيح. وإذا كانت صلواتنا لأجل الآخرين صورية وهمية وإذا قلَّ اهتمامنا بغيرنا، وفترت همتنا في الصلاة لأجل الجنس البشري. فلنذكر ساعات الليل التي كان المسيح يقضيها في الصلاة

وإذا ضاقت دائرة الذين نصلي لأجلهم، ووقف نموها على مر السنين، فلنتعلم من المسيح بدراستنا صلاته التشفعية العظمى لأجل الملكوت. عندئذ نستطيع أن نركض في سبيل وصاياه لأنه يرحب قلوبنا بواسطة الصلاة لأجل الآخرين

«يا رب علمنا أن نصلي»

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved